المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

أعلام الفكر العالمي

غيفارا



تأليف :
أندرو سنكلير

ـة :
ـليالي

غيفارا

سلسلة أعلام الفكر العالمي

غيفارا

بقلم
أندرو سنكلير
ترجمة
ماهر كيّالي

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

الطبعة الخامسة

١٩٨٦

الفصل الأول

خلفية ثائر

«ولدت في الأرجنتين، وقاتلت في كوبا، وبدأت حياتي ثائرًا في غواتيمالا». هكذا أوجز تشي غيفارا سيرة حياته. وهي ايضا سيرة قارة وقعت في تناقض بين حكومات رجعية وثورات طوباوية. كان غيفارا أول رجل منذ ايام بوليفار يحمل خطة جدية لتوحيد مجموعة بلدان مقتتلة تدعى أميركا اللاتينية، وقد شهد في حياته من التطورات ما يثبت صحة نظرياته ونقيضها في آن واحد.

قاوم غيفارا المولود عام ١٩٢٨ بشدة تاريخه الماضي بوصفه سليلا لعائلة اسبانية ايرلندية كانت لها امتيازاتها ومكانتها. ومع ذلك فعلى الرغم مما يبدو على العائلة التي عاشت في المدينة الصغيرة التا غراسيا (Alta Gracia) من تمسك ظاهري بالعادات والتقاليد فقد تميزت العائلة في الحقيقة بالتقدمية والنشاط والانفتاح الذهني. لم يثر ارنستو غيفارا الذي تكنّى فيما بعد «تشي» على الحرية الفكرية في منزله بل ثار

على الاضطهاد الذي تتعرض له قارته. وكما يشهد ريكاردو روجو، وهو صديق للعائلة، فقد كانت ثمة اشياء معينة مسلّم بها في أسرة غيفارا -- «حب للعدالة، ورفض للفاشية، ولامبالاة دينية، واهتمام بالأدب وحب للموسيقى وكراهية للمال ووسائل جمعه». لقد أدت هذه الظروف العائلية بصورة طبيعية الى شعور التمرد مما دفع تشي لأن يصبح ثائرًا حالما يستطيع فهم المشاكل الاجتماعية لأمريكا الجنوبية.

تصرف تشي كشاب عندما كان طفلاً وتصرف كرجل عندما أصبح شاباً، ووصفه احد رفاقه في الدراسة بأنه انسان «واثق من نفسه الى حدّ لا يصدق ومستقل في آرائه استقلالا تاما... ممتلىء شديد النشاط لا يعرف الكلل، فضلا عن تحرره من التقاليد والاعراف». أما بالنسبة لأحد اساتذته فقد كان تشي «في مظهره وتصرفه انسانا يفوق عمره كثيرًا وبدا واضحاً بأنه ينمو بشخصية واضحة المعالم ومزاج متقلب، وسلوك غير منضبط، ومع هذا فقد كان تام النضوج». وحين كان في المدرسة الثانوية كان أصدقاؤه من طلاب الجامعات يعدونه واحداً منهم مساوياً لهم. كانت واقعيته تطغى على رغبتهم في الاحتجاج الوهمي. ففي إحدى المناسبات، عندما طلب منه النزول الى الشارع في تظاهرة احتجاج سياسي، رفض وقال بعبارات رزينة «نخرج الى الشوارع لنمكن رجال الشرطة من ضربنا بهراواتهم، دون ان نفعل شيئا. أجل أتظاهر ولكن عندما تكون في يدي بندقية». مثل هذا التقويم الصعب للوضع وهو لمّا يزل يافعا يجعل تأكيدات تشي الأخيرة جديرة بالتصديق. وهي ان شابًا في

الخامسة عشرة من عمره يعرف سلفا من أجل ماذا يريد أن يموت وهو لا يخشى أن يهب حياته اذا ما وجد هدفًا يجعل الفداء سهلاً.

كان تشي بطبعه ينظر الى المصاعب على انها تحديات. وإذن فلا بد من الانتصار على العقبات وتحطيم الحواجز. وطغت على شخصية تشي ميزة رافقته طوال حياته في كفاحه المبكر مع داء الربو، فقد اصبح رياضيًا بالرغم من نوبات الربو الرهيبة التي كانت تجبره على ترك ملعب كرة القدم كي يتناول الدواء. أصبح جوالاً عنيداً ورحالة لم يتوقف. إلا عندما كان لا يقوى على التنفس حتى اذا استرد انفاسه تابع سيره وتجواله. ولقد أنهى دراسة ست سنوات دراسية في الجامعة خلال ٣سنوات. مجتازًا ١٦ امتحانًا في ٦شهور، بالرغم من إصابته بـ٤٥ نوبة ربو. وصفت عمته هذه الفترة بقولها «كنا نسمعه يلفظ الكلمات لاهثًا. ويدرس وهو متمدد على الأرض كي يسهل تنفسه دون أن يتذمر أبداً. فقد كان الأمر بالنسبة اليه بمثابة التحدي». غير ان سخرية القدر العظمى حدثت عندما قرر مجلس أطباء الجيش أنه لا يصلح لأي نوع من الخدمة العسكرية وكان ذلك عندما بلغ من العمر ١٨ سنة. وكان لا بد من تأخير تدريبه العسكري فترة من الزمن.

كان لوفاة جدته بمرض السرطان ومكابدة والدته المرض نفسه أثر في توجهه نحو دراسة الطب. فقد اراد أن يحاول إيجاد علاج لهذا المرض إذ لم يكن ليقبل بوقوع مأساة حتى في عائلته. لم يقو على رؤية الألم والموت دون ان يحاول النفاذ الى جذور المرض كله. وعندما رأى في النهاية ان هذا

الألم والبؤس قابلان للشفاء ، حاول مرة أخرى ان ينفذ الى الجذور المسببة لهذا كله . لم يكن في نفسه شيء من اليأس أو الاستسلام ولذا لم يستطع أن يتخذ موقفاً سلبياً من المعاناة المؤلمة ، فقد كان في طبيعته متحدياً حتى للمستحيل .

في عام ١٩٤٦ انتقلت عائلة.غيفارا الى بيونس ايريس حيث شرع تشي في دراساته الطبية . لم يكن طالبًا مكبًا على الدرس بل كان يفضل بذل جهد مضاعف في اللحظة الأخيرة ،إذ كان يقضي ما تبقى من وقته في السفر. ولاحظ البرتو غرانادوس وهو صديقه ورفيقه في سفره أن تشي لم يكن مهتمًا بإحراز علامات جيدة وإنما اهتم بدراسة ما يعنيه فقط . وانصب اهتمامه بصورة رئيسية على تحسس مواطن الجمال في المناظر الريفية في أمريكا الجنوبية ، وعلى تحسس مآسي شعوبها . وبعد ان تجول في الأرجنتين على دراجة وقع عقداً للعمل كبحار في رحلة الى البحر الكاريبي ، وبعدها انطلق تشي مع غرانادوس في رحلة يجول فيها القارة بأكملها . لقد مارس كل منهما أعمالاً مختلفة ،من سائق شاحنة الى حمال الى طبيب ومنظف للصحون . وعمل تشي في وقت من الأوقات حارسا لشركة تعدين أمريكية في تشيلي . وكان أكثر الأعمال أثرًا في نفسيهما عملهما في ملجأ للمصابين بالجذام في سان باولو على الأمازون فهناك اكتشف تشي أن أعلى انواع التضامن الإنساني والاخلاص كانت تنمو لدى الرجال المنعزلين اليائسين . وأنهى تشي زيارته لميامي وقد أوشك أن يموت جوعاً ، ولكنه عاد بطريقة ما الى بيونس ايريس كي يكمل دراسته وينال

شهادته الطبية.

كانت هذه الرحلة الشاملة التي أمضاها - وخبزه كفافه - الدليل بل القاعدة التي بنى عليها تشي شعوره بأنه يعرف الأمريكيين ومشاكلهم. فقد قال فيما بعد انه لم يشعر قط بأنه غريب في أي مكان. «شعرت بأنني غواتيمالي في غواتيمالا - ومكسيكي في المكسيك - وبيروني في بيرو». وفي غضون ذلك بدأ مفعول الرحلة بتحويله من طبيب الى ثوروي متطرف. وفي حديث له عام ١٩٦٠ تذكر أوائل هذا التحول فقال «بسبب الظروف التي أحاطت برحلتي أصبحت على صلة وثيقة بالفقر والجوع والمرض. واكتشفت انه ليس بوسعي أن أشفي الأطفال المرضى إذا لم تتوافر لدى الوسائل، وشاهدت الانحطاط في سوء التغذية والكبت المستمر. وهكذا ابتدأت أدرك أن هناك شيئًا آخر له من الأهمية ما يوازي أهمية ان يصبح المرء باحثاً شهيراً أو مساهماً في تقديم العلوم الطبية، عنيت به مساعدة هؤلاء الناس».

وكان لظروف السفر القاسية أثر آخر، فقد أثبتت لتشي أنه يستطيع معاناة الشدة والحرمان -- وان العيش على حافة البقاء ضرورة لأي مقاتل في حرب العصابات. وقد لاحظ أصدقاؤه انه يستطيع العيش في أكثر الأماكن تعفناً دون ان يفقد روح الدعابة. وكان يتساهل مع صديق السفر إن هو أهمل أمر ملابسه ونقوده، أما بالنسبة لمشي المسافات الطويلة فهذا ما لم يكن يتسامح به. وكان من العزيمة بحيث يستمر في السير مدة

ثلاثة أيام دون ان يذوق طعاماً ثم أن يعيش فقيراً بين الفقراء جعل تشي يحس بنقمتهم على مستقبلهم ، وبانتشار روح الأخوّة بينهم ، فضلاً عن تعلمه الانضباط الذاتي الذي يحتاج اليه كي يصبح قائدهم .

وبعد مضي شهرين من تخرجه طبيبا في عام ١٩٥٣ -- وكان موضوع أطروحته الحساسيات الجسدية -- ألقى تشي مهنته جانباً على الرغم من معارضة أبيه لذلك . وترك الأرجنتين قاصداً بوليفيا التي كانت قد شهدت أول حكومة إصلاحية فعالة في تاريخها . فقد قام النظام الجديد بتأميم مناجم القصدير التي ربما كانت أكبر المناجم وأسوأها إدارة في العالم ، وكذلك وزع الأراضي البور بين الهنود الذين لم يملكوا حتى حق المطالبة بها منذ الغزو الاسباني في القرن السادس عشر. ولم يكن تشي ماركسياً ولا ثورياً بعد ، وبشهادة صديقه روجو كان جل اهتمامه منصباً على الطب وعلم الآثار وليس على علم السياسة . ومع ذلك فإن احتكاكه الأول والمباشر ببرنامج واسع للتغيير الاجتماعي ، كان يعد آنذاك ، صرف تشي الى أفكار تقدمية ثورية . لقد كانت بوليفيا ، وهذه مفارقة كبيرة ، هي البلد الذي ألهم تشي مهمته السياسية وهي التي في الوقت نفسه قتلته .

كان تشي على علم مسبق بأنه من المحتمل أن يكون قد حكم على الثورة البوليفية التي حدثت عام ١٩٥٣ بالإخفاق الجزئي .

وبالاشتراك مع صديقه روجو قابل وزير شؤون الفلاحين ، فخاب أملها فيه وحدث فيما بعد ان وقف تشي مرة في الشارع أمام تمثال لبوليفار

وقال «إن المسألة هي في محاربة الأسباب ، وليس في الرضا عن التخلص من الآثار. ان الثورة محكوم عليها بالفشل إذا لم تعمل على كسر الانعزال الروحي للهنود. وإذا لم تنجح في النفاد الى اعماقهم فتهز كيانهم وتتغلغل في عظامهم. وتعيد لهم مكانتهم كبشر وإلا فما الفائدة؟».

وزار الصديقان أيضاً المناجم العظيمة في سيغلوا (Siggio) وكذلك في كتافي (Catavi) وأدعى وزير المناجم جوان ليشين بأن الثورة متأصلة في بوليفيا أكثر منها في الصين. ولكن تشي بقي غير مقتنع. وعندما رفعت الحكومة من أجور عمال المناجم التي أمّمها تشاءم تشي وأصبح سوداوي المزاج فقد رأى ان احتياجات شعب متأهب للثورة يمكن ان تفسد من خلال إعطاء العمال الرشاوى عندما تتغير الأيدي المتحكمة في الأعمال وبالتالي فإن ذلك يعتبر من الأخطاء المميتة. ومما يدعو للأسى ان العمال خفضوا من الاحتياطي المادي والخلقي لثورة كانت تحتاج الى كل احتياطي عندها حتى النهاية. ولم يستطع أحد من رفاق تشي في بوليفيا تغيير تفكيره.

وترك تشي وروجو بوليفيا في شاحنة مع نفر من الهنود قاصدين بيرو. وكان وصف روجو لردود فعل الهنود نحوه ونحو تشي بمثابة نبوءة لردود الفعل التي ستواجه تشي كرجل عصابات في بوليفيا بعد ١٥ عامًا.

«لقد كانت رحلة لا مفر منها للتعرف على أميركا الهنود. دخلنا عالمًا معاديًا ووقعنا في شرك عدم التمييز بين الحزَم وبين أناس هم أشباه الحزم. كان الهدوء مخيمًا، رجّات ورضّات وهدوء. ووجدنا انه من

المستحيل أن نحاول إظهار تعاطفنا أمام تلك العيون المتحجرة التي تحملق فينا وفي تلك الشفاه المطبقة الكالحة كالرذيلة والتي ترفض أن تجيب عن أسئلتنا. لم نستطع التفاهم بأية طريقة بشرية مع الهنود. ومع ذلك فإن الحراس على الحدود مع بيرو كانوا على قناعة تامة بأننا شحنا رؤوس أولئك الهنود بأفكار حول الثورة الزراعية».

وسافر تشي وروجو مع طلاب أرجنتينيين الى مدينة غوايكويل (Guayaquil) الاستوائية، وهناك اتخذ تشي قرارًا لم ينقضه في حياته أبدًا. فقد أقسم على الالتحاق بصديقه غرانادوس في ملجأ سان بابلو، للمجذومين. ولكنه احتاج الى قليل من الحث. من التلامذة الأرجنتينيين، كي يواصل السفر معهم الى غواتيمالا حيث كانت ثورة أخرى في طور التخمر والتي ربما تقدم نموذجًا للتغيير في القارة. وكما قال روجو لم يكن تشي ماركسياً بعد، ولم يكن مهتماً أيضاً بالسياسة. ولكن صديقًا آخر لاحظ ان تشي بدأ يشعر بأنه مسؤول عن كل المظالم في العالم. لقد كان يتلمس طريقه نحو جذور كل مسببات البؤس الذي شاهده، والذي شارك فيه الفقراء أحيانًا في أمريكا اللاتينية. ولكنه بقي جاهلاً للفلسفة السياسية. لقد شاهد دليل الاستغلال ولكن ليس طريقة تغيير النظام.

وفي غضون ذلك قام جوان بوش، الذي أصبح فيما بعد رئيسًا إصلاحيًا للجمهورية لوقت قصير بمقابلة تشي، ووجد ان تشي كان «منهمكاً

بشكل كبير بما شاهد . وبدا كأنه غير راضٍ عن الحلول التي افترضت حتى ذلك الوقت . وعندما كان يواجه بأسئلة محددة كان ينتقد كل الأحزاب ، ولكنه لم يحدد موقفه الشخصي أبداً » . ومع ذلك فقد كان بوش مقتنعًا من خلال الطريقة التى أجاب بها تشي عن الأسئلة بأنه لم يصبح شيوعيًا بعد . لقد كان قلبه يسبق عقله . كان إحساسه بالحرية مايزال في صراع مع شعوره من احتمال قيام البيروقراطية بإدارة الدولة الاشتراكية . لقد كان بحاجة الى رؤية قيام ثورة أخرى ودراسة الفكر الثوري من أجل إيجاد نظام للتغيير .

وكان جاكوب اربنز . الذي قاد الحكومة الثورية الجديدة بدعم من الضباط الشباب والمثقفين قد أجرى أخطر إصلاح عرفته البلاد . وعندما وصل تشي في عام ١٩٥٣ كان اربنز يعيد توزيع مساحات واسعة من الأراضي على الهنود والفلاحين . وهي الأراضي التي صادرها من شركة الفواكه المتحدة . كان الخطر على الاصلاح يكمن في التحفز لهجوم معاكس تقوم به الشركات التي تمثل مصالح الولايات المتحدة . ذلك ان شركة الفواكه المتحدة كانت معتادة منذ وقت طويل على حكم ما يسمى « بجمهوريات الموز » لصالح حملة الأسهم من الأمريكيين. لم يلفت اربنز نظر تشي للقوة الاقتصادية لأمريكا الشمالية فحسب . بل عرفه أيضاً بخصائص نظامها السياسي عندما قال بعبارات ليست مادية « الرجل ليس معدة فحسب » واعلن اربنز « بعد كل حساب ، نحن نؤمن بأنه -- الانسان -- يتوق للكرامة » . .وبرز هذا الموقف كشيء أساسي

في تفكير تشي فيما بعد ، فقد طور تشي نفس المفهوم الاشتراكي بحيث جعل ضمن محتواه ان الإنسان لم يكن ولن يكون مادياً في تطلعاته ، لأن الاشتراكية الحقيقية نقيض للمادية . وبقي تشي يكن اعجاباً لاربنز وبرنامجه طيلة حياته .

علاوة على ذلك ، لم يكن إعجاب تشي كافياً ،بل رغب في العمل لخدمة الثورة كطبيب في أدغال بيتن (Peten) لكن رغبته لم تلق نجاحًا بسبب بعض الاعتبارات البيروقراطية . فقد حدث أن زار وزير الصحة العامة ، وبدا له آنذاك وكأنه قد ووفق عليه ، الى أن سئل عن بطاقته . «أية بطاقة ؟» سأل غيفارا ، فأخبره الوزير بأن عليه أن يكون عضوًا في حزب العمل الغواتيمالي ، وهو اسم آخر للحزب الشيوعي المحلي . ورد تشي بأنه يعتبر نفسه ثورياً وهو لايعتقد بأن انتسابات من هذا النوع تعني شيئًا على أية حال ، إذ لم يكن تشي ليرضى بالالتحاق بالحزب عن طريق الإكراه ، بل بشعور من القناعة التامة . وهكذا لم يستطع الحصول على الوظيفة .

كان سقوط نظام حكم اربنز عام ١٩٥٤ بمثابة أول اختبار يواجهه تشي في التكتيكات العملية للثورة والثورة المضادة . وكان الرد الانتقامي لحكومة ايزنهاور على توقيف مصانع شركة الفواكه المتحدة ان سمحت لوكالة المخابرات المركزية (CIA) بالبدء في تنظيم وتمويل انقلاب عسكري في غواتيمالا . وعملت ثلاثة عوامل في صالح وكالة المخابرات المركزية (CIA) . أولها أن ضباط الجيش الغواتيمالي المناصرين لاربنز

خاب أملهم بالنظر الى بطء خطى الثورة التي لم يكن لديها الوقت الكافي آنذاك لنيل الدعم والثقة من جماهير اضود في غواتيمالا . وكان انقسام النظام نفسه . بسبب المطامع الشخصية والخلافات الايديولوجية عاملاً ثانيا لصالح المخابرات المركزية . أما العامل الثالث فهو ذعر الطبقات الوسطى من تحدي الحكومة العلني للولايات المتحدة .

وفي نهاية يناير عام ١٩٥٤ كان اربنز يتهم إدارة ايزنهاور بتنظيم غزو لغواتيمالا يعده المبعدون . غير ان هذه التهمة لم توحد البلد لتسير وراءه . بل اظهرت الانقسامات داخل حزبه الخاص وأشاعت الرعب بين الغواتيماليين .

وفي الثامن عشر من حزيران تعرضت غواتيمالا لغزو قامت به قوات كاستيلو ارماس المدربة بواسطة وكالة المخابرات المركزية والمجهزة تجهيزاً جيدًا . ورفض الجيش الغواتيمالي تسليح الشعب خوفًا من سلطته عليه . فسقط نظام حكم اربنز وحده وسط الانشقاقات والتهم المتبادلة .

وحفز هذا الانهيار روح النضال لدى تشي . فالتحق لأول مرة بالمقاومة . وتنقل بين مجموعات صغيرة من الشباب الثوريين . محاولاً أن يوحدهم ويستولي على مدينة غواتيمالا . كان لدى تشي استراتيجية وخطة للدفاع ، ولكنه لم يستطع إيجاد مجموعة تتبناهما . لقد بذل جهوداً كبيرة في تشجيع الغواتيماليين وحثهم على القتال من أجل ثورتهم حتى أنه نقل السلاح بنفسه من مكان الى آخر . ولكن لم يكن بوسعه أن يفعل وحده

ما لا ترغب الحكومة القيام به. وعندما استقال أربنز مبدياً ضعفاً ذاتياً، وصل أرماس مكانه، اضطر تشي أن يطلب حق اللجوء السياسي من السفارة الأرجنتينية، وذلك خشية المجموعات اليمينية التي كانت تلاحقه مزمعة على قتله. وبقي هناك كالسجين مدة عامين تقريباً حلّل فيهما أسباب فشل الثورة.

وكتب ريجي دوبريه فيما بعد «الفشل بالنسبة للثوري هو نقطة الانطلاق. وهو مصدر إلهام له أكثر من الانتصار لأنه يجمع بين التجربة والمعرفة». ولربما كانت محاولات تشي على أرض المعركة غير مجدية ولكنه حاول ان يفعل شيئاً ما. اعترف تشي نفسه بأنه لقي الهزيمة في تلك الفترة، ومع ذلك فقد انصهر في آلامه مع جميع الغواتيماليين، بينما كان يتلمس طريقه لبعث مستقبل تلك المنطقة التي تدمي القلوب. وكما حدث لأنتيوس، فإن السقوط قد قاد تشي للنهوض مرة ثانية وبشكل أقوى من السابق، لأن الهزيمة لم تعن له الا مزيداً من الاستعداد للنصر في المرة التالية. وفوق كل ذلك فقد عنت له إيماناً أكبر بتلك الجماهير التي لم يثق بها اربنز الى حد تسليحها ودمجها في البنيان السياسي للبلد.

ولئن كانت وكالة المخابرات المركزية قد حققت نصراً مؤقتاً للمصالح المالية الأميركية في غواتيمالا، فإنها في الوقت نفسه أوجدت لها عدواً لدوداً. فالهزيمة المنكرة التي لحقت بأحد البلدان الأشتراكية، والتي دبرها المتآمرون الرأسماليون قد دفعت تشي الى دراسة ماركس ولينين.

ووجد تشي ان كل البغض الشخصي الذي كان يكنه لأعداء اربنز ممن افسدوا الحكومة والاصلاح الزراعي قد بدا متمثلاً في شروحات تاريخ العالم الماضي والحاضر الموجود في التفسيرات الماركسية لأساليب الأمبريالية. فقد تعرض بلد صغير يعاني الاستغلال. وكانت تقوده حكومة تحاول تحسين احوال الناس الى هجوم متعمد من قبل قوة رأسمالية غنية تحقق أرباحها عن طريق استغلال هذا البلد الفقير. إن هذا مثال لأسوأ أشكال الأمبريالية في التطبيق. وأصبحت الولايات المتحدة بالنسبة لغيفارا وغداً يتمثله في تجربته وايديولوجيته الجديدتين. وكتبت هيلدا جاديا زوجة تشي الأولى تقول «كانت غواتيمالا البلد الذي دفع تشي للاقتناع نهائياً بضرورة خوض الكفاح المسلح وأخذ زمام المبادرة ضد الأمبريالية. وقد كان على يقين من صحة ذلك عندما كان يهم بترك ذلك البلد».

غادر تشي غواتيمالا الى المكسيك لدراسة نظريات الثورة. وفي مدينة المكسيك. حيث عاش عيشة الكفاف. كما يعيش العصفور في الشتاء. أقبل على قراءة الأعمال الكاملة لماركس ولينين «ومجموعة اعمال أخرى لعظماء المفكرين الماركسيين». ثم انكبّ على دراسة ما كتب عن الاستراتيجية العسكرية في الحرب الأهلية في اسبانيا. فقد لجأ العديد من اللاجئين الفارين من الحرب الى مدينة المكسيك التي تستقبل المهزومين في المعارك الأجنبية بالترحيب ولكنها تشح عليهم بالطعام. وتحت وطأة الجوع والدراسة والتجربة. أصبح تشي راديكاليًا ملتزمًا. لم يفاجأ تشي بالتقدم

البطيء في الاصلاح الاجتماعي الذي كان يجري في المكسيك . لأنه كان اصلاحا مترهلا على الرغم من مرور عهود طويلة من الحكم الثوري . وأعلن أن « الثورة المكسيكية ميتة . لقد ماتت منذ زمن طويل وقد غاب عنها إدراك ذلك » .

مهدت هذه الراديكالية الجديدة المتطرفة التي اعتنقها تشي للقائه مع فيدل كاسترو في صيف عام ١٩٥٥ . وكان كاسترو قد سجن ثم نفي من كوبا لتزعمه انقلابًا فاشلاً ضد الدكتاتور فولجينكو باتيستا (Fulgencio Batista) . كان كاسترو يبحث عن جماعة من الثوريين المتفرغين كي يقوم بمحاولة أخرى لغزو بلاده وإطاحة باتيستا . والتحق تشي بالحملة الكوبية في أول ليلة التقى فيها فيدل كاسترو. كان تشي ثاني رجل ينضم لها في مجموعة الذين التحقوا بالحملة أما الأول فكان راوول شقيق فيدل . وكتب تشي فيما بعد : « ان اقتناعي بالالتحاق بأي ثورة ضد الطغيان لا يستغرق من الوقت الا القليل » وكان زواجه الاول ثمن ذلك القرار. وقالت زوجته « لقد ضحيت بزوجي من أجل الثورة الكوبية » .

وعندما قام كاسترو بتأبين تشي أشار الى أول لقاء بينهما ، ذلك اللقاء الذي مهد للنتائج النهائية التي حصداها معا فيما بعد. ذلك انه في عام ١٩٥٥ كان كلا الرجلين في طور الرومانسية ولم تنضجهما الثورة ولم يكونا من الحكام او الخبراء. ثم كتب فيدل عن تشي يقول :

«كان قلبه يغلي بالحقد على الأمبريالية والاشمئزاز منها ، لا لأن إدراكه السياسي كان قد تطور الى حد بعيد فحسب بل لأنه اتيح له قبل ذلك بوقت قصير أن يشاهد جرائم التدخل الأمبريالي في غواتيمالا من خلال المرتزقة الذين أجهضوا الثورة في ذلك البلد. ان رجلاً مثل تشي كان في غنى عن براهين مدروسة. كان يكفيه أن يعلم ان هناك رجالاً مصممين على النضال ضد ذلك الواقع ، لحمل السلاح بأيديهم. كان يكفيه أن يعلم أن اولئك الرجال تلهمهم المثل الوطنية الثورية الأصيلة وهذا وحده يكفيه».

تلك كانت خلفية رجل ثوري ، رجل يتحدر من عائلة كانت تشعر بأنها منقطعة عن باقي العائلات التي تنعم بالامتيازات ، لأنها كانت واعية للمظالم الاجتماعية ، رجل كان يتحلى بطبع فريد تميز بالذكاء والنضج والتمرد والعناد ، فراح يجول القارة التي تعاقب عليها من الحكومات ما لم يجلب لها سوى الفقر توزعه على السكان. وصار ذلك الرجل طبيبًا كان همه مداواة الملايين ممن لم يجدوا الدواء. مداوتهم من أمراض لم تكن سوى أعراض لحقيقة ما كانوا يعانون ، والسبب الكامن في ذلك كله كان الظلم الاجتماعي. ثم تأتي الخبرة الشخصية المكتسبة من خلال ثلاث ثورات فاشلة — الثورة البوليفية التي قضي عليها ، على يد الجيش ، والثورة الغواتيمالية التي تحطمت امام التدخل الأمبريالي ، ثم الثورة المكسيكية التي تعفنت من الداخل. ان هذه الخبرة حولت الطبيب الشاب ، الراديكالي بطبعه ، الى ثوري رائع واعٍ. لقد انتقل من الانتقام السلبي إلى المقاومة

الايجابية . ومن الملاحظة الى التخطيط . وأصبح تعاطفه مع البشرية البائسة استراتيجية لإيجاد علاج لذلك البؤس : كان كل ما يحتاجه تشي ليصبح ثوريًا كاملاً هو ولادة ثورة أخرى .

الفصل الثاني

الحرب الثورية الكوبية

كانت الحملة التي أعدّها كاسترو لإلحاق الهزيمة بباتيستا في كوبا على وشك الفشل الأكيد ؛ فالرجال الاثنان والثمانون الذين كانوا على ظهر المركب غراما (Grama) لم يكونوا رجال حرب مدرَّبين. وكذلك الأمر بالنسبة لتجهيزهم . فقد كان سيِّئاً بمقدار ما هم كانوا بحارة سيئين. لم يستطع واحد منهم أن يسيّر المركب بشكل سليم كما عانى الجميع من دوّار البحر وتلاطُم أمواجه . وما كادت تهبّ عليهم أولى العواصف حتى رموا في البحر ما يحملون من غذاء . ثم توجّهت الحملة لتنزل خطأً في مرفأ بليك (Belic) قرب سلسلة جبال سيرا مايسترا في جنوب شرقي كوبا. وكان فقدان الخبرة لدى فيدل وتشي وباقي المجموعة خلال الأسابيع الأولى من المغامرة الفدائية بمثابة دليل يرشد إلى ما ينبغي تجنبه ، تماماً كما أصبح كتاب تشي «حرب

العصابات » فيما بعد يخدم كدليل يرشد لما يتوجب عمله . ومع ذلك فإن الأخطاء التي يرتكبها رجال العصابات في بدء عملياتهم . غالبًا ماتكون طريقهم للنجاح فيما بعد . وتؤكد جميع الاستراتيجيات التي تتناول حرب العصابات ، بما فيها استراتيجية تشي ، على ان الفترة الأولى هي أخطر الفترات اذ يكفي ان تقع بضع هفوات مصحوبة بشيء من سوء الطالع حتى تمحق المجموعة بأكملها عند البداية .

كان من المحتم ان تتحطم قوة فيدل كاسترو في المعركة الأولى في ألغريا دي بيو (Algeria de Pio) في الخامس من كانون الأول عام ١٩٥٦ . فقد قادتهم سلسلة من الأخطاء الفادحة إلى النكبة ! ويروي يونيفرسو سانشيز . وهو واحد من قلة نجحت . كيف تقرحت قدماه بسبب حذائه الجديد وكيف تعرض مكان استراحتهم في الغريا دي بيو للهجوم ، وكيف سمحوا لدليلهم بأن يتركهم ويشي بهم لقوات باتيستا القريبة . ثم يروي قصة الطائرات العشر التي حلقت فوق رؤوس الثوار . دون أن يفكروا بالأهمية الخاصة لهذه الطائرات . ويروي بعد ذلك كيف كانوا يفترشون الأرض وأسلحتهم ملقاة هنا وهناك وقد نزعوا احذيتهم من ارجلهم . وفيما هم كذلك أحاطت بهم قوات باتيستا وهي قوات محترفة اين منهم أولئك المقاتلون الأغرار فأبادتهم حتى لم ينج من المجموعة الأصلية إلا نحو اثني عشر رجلاً .

وفي كتابه « ذكريات عن الحرب الثورية الكوبية » الذي اعتمد

في كتابته على ملاحظاته التي دونها اثناء الحملة ، يتحدث تشي عن خبراته بقدر كبير من السخرية والتواضع والنقد الذاتي . فقد اكتشف أن أخطاء رجال العصابات الأولى «سخيفة ومؤلمة» . ويذكر كيف جرح نفسه في ألغريا دي بيو ويصف رد فعله الذي لم يكن ينسجم والأصول الحربية . لقد كان على حق عندما ظن بأنه مات مع ان الجرح لم يكن خطيراً . لم يكن همه النجاة بجلده — كما يمليه الواجب على رجل العصابات — وانما كان همه أن يموت بشرف :

«بدأت أتساءل في الحال . ماذا عسى أن تكون أفضل طريقة للموت؟ لكن يبدو أن الجواب حينذاك قد ضاع . ثم تذكرت قصة قديمة لجاك لندن : فبعد أن يعرف البطل بأنه محكوم عليه أن يتجمد حتى الموت في صقاع الاسكا ، ينحني على شجرة . ويقرر أن ينهي حياته بشرف . تلك كانت الصورة الوحيدة التي تذكرتها» .

ويصحو تشي من تأملاته تلك على لعنات صديقه جوان ألميدا الذي أجبره على الفرار والنجاة بحياته . ثم أسر تشي بعد ذلك وهو منحن على شجرة ولكنه كان هذه المرة جريحا في ساقه . ولا يقوى على الحركة . ومع هذا ظل يطلق النار حتى سقطت البندقية من بين يديه .

راح تشي . عندما فر مع أربعة من رفاقه الناجين يقارن ويفاضل بين واجبه كطبيب وكثوري . «قد تكون هذه هي المرة الأولى التي يتحتم

عليّ فيها الاختيار بين تكريس حياتي للطب وبين واجبي كجندي ثوري. كان عند قدمي صرة مليئة بالأدوية، وعلبة مليئة بالرصاص وكان من الصعب عليّ أن أحملها معًا لثقل وزنها. اخترت علبة الرصاص وأدرت ظهري لصرة الأدوية» هنا تعلم تشي درسه الأول كرجل عصابات. فالطلقات النارية بالنسبة لحياة المقاتل أكثر نفعاً حتى من أدوية المعالجة.

ولكنه ارتكب مزيدًا من الأخطاء. وجد تشي نفسه مع أربعة من رفاقه الآخرين يشقون طريقهم نحو السيرا مايسترا للاجتماع في مكان ما مع من نجوا من رفاقهم الآخرين. فقد قاد المجموعة مهتديًا بالنجم الشمالي ومعتمدًا على ما حفظ من علم الفلك. وبعد مضي عدة شهور اكتشف أنه خلط بين النجم الشمالي ونجم آخر، وأن وصولهم الى المكان الصحيح كان قضية حظ وحسب. بعد ذلك لم ينس تشي أن يضع بوصلة في حقيبة على ظهره.

بعد أن وجد الرجال الخمسة أنفسهم محاطين بدوريات العدو ينهشهم الجوع ويكاد يقتلهم العطش عمدوا الى طلب مساعدة الفلاحين في السيرامايسترا. ولم تخب آمالهم، فقد أقيمت لهم في أحد الأكواخ وليمة ملوكية وتدفق الجيران من كل صوب يحملون لهم الهدايا ويحيونهم بعبارات التعاطف، وكان هذا الترحيب المبكر بمثابة عون فاتر بالنسبة لتشي في حملته في بوليفيا. فبعد ٨ شهور ونصف من الأعمال الفدائية قدر له أن يكتب عن الفلاحين هناك قائلاً «لا بد من اتباع أسلوب ما لحثهم على الكلام، فهم أشبه مايكونون بالحيوانات الصغيرة». وبالتأكيد لولا

العون الذي قدمه المزارعون الكوبيون للاقت مجموعة تشي الصغيرة الفناء والإبادة .

ومع ذلك فان مسلسل الأخطاء لم يكن قد انتهى بعد .فقد قررت مجموعة تشي بأن تترك بنادقها الثماني وكل الذخيرة والملابس في كوخ الفلاح الصديق ومن باب «الحذر» عهدوا في حراستها لرفيق لهم مريض . لقد ظنوا أن تخفيهم بلباس ابناء الريف يسهل لهم اكثر معاودة الالتحاق بكاسترو ولكن مضيفهم خانهم من دون قصد عندما أخذ يثرثر شأن الفلاح في حبه للقيل والقال . وهكذا أغار رجال باتيستا على الكوخ ، وأسروا الرجل المريض ، واستولوا على كل الأسلحة والمؤونة . وعندما سارت مجموعة تشي خلف الفلاحين قاصدة كاسترو راح زعيمهم ينتقدهم انتقادًا مرًا لتصرفاتهم الصبيانية الطائشة . وكتب تشي في مذكراته :

« منذ ابتداء الحملة حتى هذا اليوم لما تفارق كلماته ذهني (لم تدفعوا ثمناً للخطأ الذي ارتكبتموه ، فالثمن الذي تدفعونه لترك سلاحكم في مثل هذه الظروف هو حياتكم . فبنادقكم هي أملكم الوحيد للنجاة اذا ما حدث ان واجهتم الجيش واصطدمتم به ، فالتخلي عنها حماقة بل جريمة » .

وحدث ان مرض تشي حال دون متابعته السير مع المجموعة فترك ايضا في رعاية مزارع صديق . ولكن في هذه المرة ترك على مقربة من منزل

المزارع وحتى دون أن تعلم زوجة الأخير. لقد أصبح تشي أكثر حذرًا.

وبالنسبة للقلة من الذين نجوا في «الغريا دي بيو» كان البقاء هو كل شيء. ففي الشهر التالي التحق بهم خمسة من المزارعين وفي بداية عام ١٩٥٧ شنوا هجومًا ناجحًا على تكنات لابلاتا. لكن معظم سكان الأرياف لم يحركوا ساكنًا، وأما الانصالات مع من كان يظن لديهم الطاقات الثورية في المدن فلم تكن قد تمت بعد، ولكن البداية، على الأقل، قد أنجزت. وكما قال فيدل: ان لديهم الآن ١٢ بندقية ونصرًا واحداً بدلاً من سبع بنادق، ومع هذا فإنهم لم يحققوا أي انتصار قط. أما تشي فلم يتوقف عن اقتراف أخطاء، فقد راح يزهو بارتداء قبعة عريف كان أخذها تذكاراً لأحد الانتصارات. وفي أحد الأيام كادت قبعته تلك أن تكون سبباً في قتله أثناء نوبته في الحراسة، فقد ظنه رفاقه عدواً فأطلقوا النار عليه، ومن حسن حظه أنهم أصابوا قبعته دون رأسه.

خلال الأشهر التالية بدأت نواة رجال العصابات تتأقلم مع الحياة في السيرا مايسترا وعلى الرغم من قلة الملتحقين هناك واكتشاف جاسوس بينهم فان السكان المحليين حموهم ورعوهم. وكان اصعب الأشياء، وهذا ما قدر لتشي أن يلمسه فيما بعد، هو الحصول على متطوعين جدد. ففي تلك الفترة كان من الصعب جدًا زيادة المجموعة، اذ ما كان أحدهم يلتحق بالثوار حتى يترك: كانت ظروف النضال الطبيعية قاسية جدًا ولكن حتى هبوط المعنويات كانت الأسوأ. وقد قادت هذه التجربة تشي

الى أن يؤكد في كتابه «حرب العصابات» على مدى أهمية تفادي المخاطرة أو فقدان الأرواح في المراحل الأولى للثورة ذلك لأنها أشياء لا تعوض أبدًا.

لقد تعلم رجال العصابات دروسًا من الثوار خلال الشهور التي قضوها في السيرا مايسترا. وكان لانضمام عدد صغير من المزارعين للثورة أهمية حيوية. كان باستطاعتهم دومًا الحصول على الطعام من أصدقائهم من الفلاحين فضلا عن التقاطهم الأخبار أو الاشاعات عن تحركات العدو، وكان بوسعهم أيضا ان يدربوا المتطوعين من أبناء المدن على حياة الريف. لقد كانوا الرواد والجواسيس والعملاء لمجموعتهم. وساعدوا في تشكيل شبكة من المؤيدين لهم في المنطقة ممن يستطيعون إحضار مجندين جدد للالتحاق بفرقة رجال العصابات. وكان من توالي نجاح «ذوي اللحى» والأساطير المحاكة حولهم ان نما عدد الثوار وزاد دعمهم. وشرع كاسترو في تأسيس شبه دولة ثورية في عدد من القرى كان من ضمن مهامها ارسال التحذير من هجوم مضاد قد يقوم به الجيش.

كان الأساس الذي بني عليه دعم الفلاحين يقوم على الحذر بقدر ما يقوم على المثالية. فذاكرة تشي عن الحرب الكوبية مليئة بصور اعدام المخبرين من الفلاحين الذين وشى بهم فلاحون آخرون. كان الثوار يحمون أصدقاءهم والمحايدين و يعاملونهم بالحسنى ولكنهم لم يرحموا قط أي شخص من الذين ساعدوا باتيستا. وكانت مساعدة الحكومة في العديد من المناطق في السيرا مايسترا في نهاية الأمر أكثر خطورة من مساعدة

الثوار. خلاف ما جرى في الحرب اللاحقة في بوليفيا. حيث لاقى تشي الأمرين من فلاحين لم يستطع ضبط تصرفاتهم او اسكات ألسنتهم. وخلال الحرب الكوبية كتب تشي عن الفلاحين: «كان التبليغ عنا يسبب لهم عذابًا في ضمائرهم وكان مصدر خطر دائم عليهم نظرا لسرعة اقتصاص العدالة الثورية».

كان دور الفلاحين في الانتفاضة أساسيًا بالنسبة لنجاح مجموعة كاسترو ولفهمها فلسفة الثورة. ووصف تشي تزايد إدراك رجال العصابات لأهمية الفلاحين فقال:

«بتنا نعي أكثر فأكثر ضرورة إحداث تحول حاسم في حياة الشعب. وبدأت فكرة الإصلاح الزراعي تنضج. ولم يعد الاتحاد مع الشعب أمرًا نظريًا وإنما صار عنصرًا أساسيًا من عناصر وجودنا. وعندما حدث هذا أو عندما انقلبت الكلمات إلى حقيقة انصهرت مجموعة رجال العصابات والفلاحين في كتلة واحدة دون ان يعرف أحد متى تم ذلك. وهكذا أصبحنا جزءاً من الفلاحين. أما بالنسبة لي فان محاولاتي في معالجة مرضهم في السيرا مايسترا قد حولت شعوري العفوي أو بالأحرى الحماسي الى قوة أكبر قيمة وأعمق جذورًا. ان أولئك المواطنين البؤساء الشرفاء في السيرا مايسترا. لم يخامرهم أي شك في أصالة الدور الذي قاموا به في صقل الايديولوجية الثورية».

وكان لهذا الاحتكاك بالفلاحين أعمق الأثر في نظرية تشي الشاملة

ولاحظ تشي ان «هناك تغيرا نوعيًا ، اذ توجد الآن منطقة كامله يتجنبها العدو خوف ملاقاتنا وإن كنا بدورنا لم نسع الى الاصطدام معه».

لقد كانت «مرحلة القواعد المتحركة» بالنسبة لرجال العصابات في السيرا مايسترا مرحلة حاسمة ، فاما أن تشق الثورة طريقها نحو النصر ، واما أن تواجه الهزيمة فالتصفية. لقد أصبح الناجون القليلون من معركة اليغريا دي بيو. مقاتلين موسميين بعد أن كانت كفايتهم القتالية في البداية لا تذكر ولم يتوقف تشي مطلقاً عن تحليلاته لأخطائه الشخصية وأخطاء المجموعة ، بالرغم من بعض عجز أصابه خلال مرضه.

وكانت معظم نظريته اللاحقه عن حرب العصابات — قامة نواة لرجال حرب العصابات ، واستمرار الوجود الثوري بأي ثمن في الأيام الأولى ، والحفاظ على الروح المعنوية — النتائج المباشرة لهذه الملاحظات. وفوق كل شيء فقد تعلم أن ينظر بعين التقدير الى مساعدة الفلاحين المتطوعين الذين كانوا يزودون رجال العصابات بالمؤن. وبالرغم من أهمية وجود المتطوعين الجدد والأسلحة المرسلة من المدن ، فإن تشي أخذ يقلل فيما بعد من قيمة مساعدتهم في تطوير قوات رجال العصابات ، وذلك لأسباب سياسية.

ويعتبر انتصار الثوار في ال أوفيرو ، عندما اكتسحوا ثكنات صغيرة في وضح النهار خلال هجوم مباشر ،نقطة تحول في الحرب. فقد انسحب جيش باتيستا بعدها من مراكزه في السيرا مايسترا تاركًا خلفه منطقة واسعة

للثوار. ومنذ ذلك الوقت ، كما يذكر تشي «يقوم العدو بغارات متقطعة على السيرا... لا شك أنه كانت هناك منطقة محررة. والاجراءات الاحترازية لم تعد ضرورية ، فكنا نستطيع ، الى حد ما ، التحدث في الليل والتحرك في مآوينا. كما رحنا نتنقل في قرى جبال السيرا ونوثق علاقاتنا مع السكان».

ولكن النجاح قد يخلق من المشاكل بقدر ما يخلق الفشل. فقد بدأت قوة رجال العصابات فترة من النمو المستمر التي ولدت مشاكل جديدة تتعلق بالطعام والمؤن. وبدأ الطور الثاني من حرب العصابات بلجوء الثوار الى مجتمعات شبه دائمة ، حيث أقاموا مراكز للخدمات والمؤن ، وأصبحوا حكومة «مصغرة». كما أسست الصناعات الصغيرة ، ومحطات الراديو والمستشفيات وصدرت مراسيم بسن القوانين وشكلت المحاكم ليأخذ العدل مجراه ، وبدأت حملة مركزة من التثقيف العقائدي. وقد نشأت حالة أشبه بالهدنة مع جيش باتيستا ، سمحت للثوار بأن يبتاعوا من المزارعين والبقالين في القرى محاصيل ومؤنا معينة. وتبدلت اوضاع قوات الثوار من عدة وجوه الى ما يكاد يشبه أوضاع جيش نظامي يعسكر في أرض صديقه.

ويعود الفضل الأكبر في هذا التنظيم الى تشي. فمهارته في التخطيط التي تكشفت جديدًا تبدأ من هذه الفترة. فبعد معركة ال أوفيرو رفع الى رتبة ميجور أو آمر قطاع (Commandate) وهي أعلى رتبة في قوات الثوار

ه مسؤولاً عن « الصف الثاني » وبذلك أصبح مركزه من حيث المرتبة
ركز كاسترو مباشرة . وبدأت الإذاعات الخاصة لباتيستا بالحملة عليه
ميًا كحملتها على كاسترو وشقيقه. وكان انريكو مينسيس
Enrique Mens) وهو صحافي امضى ٤شهور في السيرا مايسترا في
ن الأول عام ١٩٥٨ قد شهد لتشي بنجاح خطته في إقامة قاعدة
دات للثوار. وعندما وصل الى معسكر تشي وجد فيه مستشفى يؤوي
الاستراتيجية الثورية . فقد دفعته تجربته التي عاشها في السيرا مايسترا
ء في كتابة «حرب العصابات» بثلاثة منطلقات رئيسية ، من بينها أن
اطق الريفية في البلدان النامية في أمريكا اللاتينية تعتبر أفضل مواقع
ل بالنسبة للثورة». وأكثر من هذا فهو يصر على «أن يجعل رجل
مابات الاصلاح الزراعي شعارًا له». وقد أكد تشي وأتباعه من
ريين الكوبيين فيما بعد على أنهم ليسوا مدينين لنظريات ماوتسي تونغ
حرب الفلاحين ، مؤكدين انهم لم يقرأوا ما كتب أوكتب الآخرون
ذا الموضوع . كانت خبرة تشي الشخصية المكتسبة أفضل معلم له .

وثمة درس آخر أكثر فائدة منه في الأيام المبكرة من الحرب . فقد
كاسترو على قواته أن يتصرفوا بإنسانية ، قدر الإمكان مع جرحى
و، والأسرى المدنيين والفلاحين الذين لم يتعاونوا مع العدو. فكانت
جة أن سمعة رجال العصابات الطيبة امتازت عن سمعة رجال باتيستا
لبية ، الذين اقترفوا مختلف الأعمال الوحشية . وكانت لذلك فائدة
لية لتشي نفسه الذي عانى من نوبة حادة (Ashma) . وحدث في

إحدى المرات ان أبيدت مجموعة كاسترو بأكملها تقريباً بسبب ضعف تشي البدني . وفي النهاية كان لا بد من تركه ليعتني به أحد المزارعين الذين أيدوا رجال العصابات لمعاملتهم الانسانية وعندما حاول تشي الالتحاق بالمجموعة كان مريضاً لدرجة اضطر معها الى استعمال بندقيته كعكازة . استمر يمشي عشرة أيام لقطع مسافة كان يجتازها في يوم واحد.

كانت الوحشية التى مارسها باتيستا في إحباطه مؤامرة طلابية في هافانا عونًا أساسيًا وجديدًا للرجال الثلاثين الذين كانوا يشكلون قوة رجال العصابات . وبدأت حملة الإرهاب التي قام بها الجيش في جبال السيرا مايسترا في زعزعة تعاطف الفلاحين مع كاسترو ومع ذلك فإن ٥٠ متطوعًا جديدًا من أبناء المدن التحقوا برجال العصابات . كان ثلاثون منهم مسلحين. وفي أيار من عام ١٩٥٧ سلمت شحنة أسلحة الى قوات كاسترو تضم رشاشات ، وبنادق أوتوماتيكية ، وكاربينات ، و٦ آلاف طلقة . وكان تشي والثوار المتمرسون منتشين بهذا التعاظم في القوة ، بالرغم من سؤ نوعية المتطوعين الجدد وضعفهم .

«بعد عدة أشهر قضيناها في السيرا أصبحنا متمرسين ورأينا أن القوات الجديدة في جراما (Grama) ، كانت تفتقر الى النظام ، والقدرة على التكيف مع النكسات والحياة الجديدة ، والحزم.. كان من السهل ملاحظة الفارق الكبير بين المجموعتين ، مجموعتنا انضباطية محكمة اعتادت على الحرب وشظف العيش ، أما مجموعة القادمين الجدد فما زالت تعاني من وحشة الأيام الأولى : فهم لم يعتادوا تناول وجبة واحدة في اليوم ، واذا لم

يعجبهم الطعام الذي كان يوزع عليهم أضربوا عن تناوله ، كانت صررهم تحتوي على أشياء لا نفع منها ، واذا حدث ان كانت الصرر ثقيلة بحيث لا يستطيعون حملها فإنهم كانوا يفضلون التخلص من علبة حليب مكثف على التخلي عن منشفة ، وهذا عمل يعتبر جريمة بحق الذات الفدائية . أما نحن فكنا نجمع تلك العلب لنفيد منها فيما بعد . »

مع ذلك فقد أبلى المتطوعون الجدد بلاء حسنًا في معركة أوفيرو التي لعب فيها تشي نفسه دورًا رئيسيًا . إن مرحلة « القواعد المتحركة » التي ناقشها تشي في كتابه « حرب العصابات » كادت تختفي ، فقد أجبرت القوة المتنامية لرجال العصابات جيش باتيستا على إحداث تغيير في موقفه ، كما احدثت هي تغييرًا في معنويات رجال العصابات أنفسهم . عشرين جريحًا وطبيبين ، ومشغل سلاح ، ومتجر خياطة يصنع بزات من قماش أخضر زيتوني يرسل الى هافانا ومخبزًا وآلة طباعة تنتج صحيفة أخبار منتظمة . كان التباين بين فيدل كاسترو وتشي واضحًا بالنسبة لمينسيس . كان فيدل الحاكم الطوباوي ، المفوّه الدائم التنقل والتخطيط . وكان تشي منصتًا هادئًا سعى لإقامة قاعدة للعمل آمنة ، كان الانسان العملي الذي يستطيع تحقيق أحلام فيدل . كان فيدل وتشي يعتمد بعضهما على بعض في العمل ، وكان هناك فعلاً من يضمرون الإخلاص والاعجاب نحو تشي بمقدار ما كانوا يضمرونهما لرئيسهما الكوبي .

ومع ذلك فإن هذه الفترة من حياة تشي لم تكرس كليًا لعمليات آنيّة ، اذ لم يكن تشي منهمكًا في احراز النصر في الحرب وحسب ، بل

بالقواعد العامة لجميع حروب التحرير. وبالمجتمع الجديد الذي سينشأ في كوبا غداة إحراز النصر. ويروي أحد الرفاق، وهو روفائيل تشاو في شهادته عن تشي في ذلك الوقت: «كان يمكن أن تراه في وقت متأخر جدًا من الليل يجلس في خيمته ويدون ملاحظاته. وكان مولعًا بالنقاش أيضًا. وعندما كان الجميع على وشك أن يناموا. كان يتمشى خلال المعسكر باحثًا عن أحد يشعر برغبة الحديث. وكان يتبادل الرسائل مع راوول كاسترو الذي كان يومها يخالفه الرأي في عديد من المعتقدات الماركسية التي يتمسك بها تشي». واكتشف تشي أن التنامي في وضوح الرؤية رفع من معنوياته ومعنويات جميع رجال العصابات وكان له أثر عليهم. «أيها القادة والمقاتلون إن الوعي يتنامى. وإن الأفاضل بيننا شعروا بمسيس الحاجة الى الإصلاح الزراعي وقلب النظام الاجتماعي الذي بدونه لا يمكن للبلاد أبدًا ان تحقق الرخاء».

والحقيقة ان في كل صفحة من ذكريات الحرب الثورية الكوبية يمكن للمتأمل أن يرى فيها أثرًا من عقل تشي المحلل والمتبصر بالأمور. ومعظم الأفكار التي تضمنتها كتاباته الايديولوجية فيما بعد كانت في ذلك الحين لا تزال في طور النشوء وما من شك في أن أفكاره الاستراتيجية قد ولدت خلال النضال في السيرا. وهي تتلخص في حكاية له عن خبرته القتالية. مثال ذلك ما يشرحه عن توقيت الكمين في ال هومبريتو فيقول:

«لقد أظهرت لنا هذه المعركة كم كان سهلاً ضمن ظروف معينة. مهاجمة الطوابير أثناء مسيرتها. ومرة أخرى تأكدت لنا صحة ذلك

التكتيك الذي يقضي بالتسديد دوما الى رأس القوات الزاحفة . في محاولة لقتل أول رجل أو أول مجموعة من الرجال . وبالتالي احباط حركة قوات العدو بأكملها . وشيئًا فشيئًا قمنا بتحسين هذا التكتيك . وفي النهاية بلغنا فيه حداً جعلنا به العدو يحجم عن الدخول إلى السيرا مايسترا كما رفض جنوده مرات السيرا في صفوف الجيش الأمامية » .

ويخبرنا تشي عن تقويم أجراه في أعقاب إحدى المعارك أظهر مواطن ضعف هائلة كان سببها الفشل في استغلال عنصر المباغته . ولم يكن تشي يكتفي بشرح المعركة . بل كان يعمد الى استخلاص الدروس منها . وفي الحقيقة أصبح كلا العاملين المذكورين أعلاه ونعني بهما الكمين والهجوم المفاجىء . العنصر الأساسي عند العسكري في «حرب العصابات» وفي استراتيجيته الحقيقية في الحملة البوليفية .

أقام فيدل كاسترو صلات وثيقة مع جميع أحزاب المعارضة في كوبا واعدًا إياهم بالكثير من أجل حصوله على دعمهم ضد باتيستا . وبنى آمالاً عظيمة على إضراب عام كان قد دعي اليه في المدن في نيسان عام ١٩٥٨ . غير ان فشل ذلك الاضراب قد برهن على انه كان أكثر من مجرد انتكاسة نظرية . لقد أطاح بمعنويات أعداء باتيستا وقطع خطوط الإمدادات والاتصال بين المدن والسيرا مايسترا وأدى الى هجوم شنه جيش باتيستا بهدف إلحاق هزيمة ماحقة بالثوار خلال الصيف . ويمكن القول إن ذلك الفشل قد زرع الشك في نفس تشي من حيث جدوى العمل المدني في دعم حرب العصابات في الحملة الكوبية . لم يكن

يؤمن كثيراً بقوة الثوار المدنيين، الذين كانوا في نظره « ليّني العريكة » وغير واقعيين. غير ان « زحفه الطويل » عبر الجزيرة في نهاية حملة كاسترو المظفرة في خريف عام ١٩٥٨ والتي شطرت الجزيرة الى نصفين، أكدّ تحامله على قيمة العمل المدني، ذلك ان هذا الزحف حرر المدن من الجبال. فقام بقطع المواصلات بين المدن وبهذا عزل سانتا كلارا واستولى عليها نهائيًا. وكانت تجربته الخاصة تتمثل في إقامة قاعدة ريفية ثم التوسع، إلى أن تقع القرى في أيديه ويعزل المدن حتى تسقط ايضًا. ويرى تشي ان واجب الريف تحرير المدينة، ولا بد من غزو المراكز المدنية من الخارج وليس من الداخل وقد أدت حملة السيرا والموقف المحافظ للحزب الشيوعي الكوبي الى معاداة تشي للمبدأ الماركسي – اللينيني بالنسبة للثورة التي يقودها البروليتاريون المدنيون عبر سلسلة من الاضرابات ومن خلال تدمير آلات المصانع ثم عبر الثورة النهائية. سوف ينتصر الفلاحون المسلحون على الريف إلى أن تسقط المدن على ركبتيها كما يسقط الموز العفن. هذه هي التجربة التي قادت تشي فيما بعد الى العزلة الجغرافية في بوليفيا.

وإذا أردنا التعرف على أخطاء تشي المبكرة والمرات التي نجح فيها كرجل عصابات في السيرا مايسترا، فذلك يتطلب صرف وقت غير قصير. فالشهور الـ٢٥ التي قضاها من حياته هناك قد خلقت منه منظمًا ومفكرًا وخبيرًا تكتيكيًا شبيهًا بالبطل. مع انه لم يكن سوى مجرد شاب مريض بالربو، خيالي ذي ثقافة مدنية، اعتبر نفسه ثوريًا بسبب تجواله بين

الفقراء في امريكا اللاتينية ودراسته ماركس ولينين. لم يكن يختلف بأي شكل من الأشكال عن آلاف التقدميين من أبناء الطبقة الوسطى في المهن الحرة. ولكن في الوقت الذي تولت فيه حكومة كاسترو الانتقالية السلطة بعد انتزاعها من باتيستا في يناير ١٩٥٩ برهن تشي على أنه مقاتل ومغوار، ذو شجاعة وقوة وقدرة عظيمة. لقد غدا من أهم الرجال في كوبا ثم سرعان ما أصبح ينظر اليه كشخص من أهم المنظرين للثورة. كانت مهمته ان يؤلف «وبطريقة منتظمة ومتماسكة» ايديولوجية من مجموعة نظريات متناقضة تتوالد في كوبا إثر النصر الذي أحرزه كاسترو.

عملت الثورة الكوبية على صقل تشي سياسيا وايديولوجياً. وحولته صلته بالثوار الى «مناد بإصلاح زراعي يقوم على اسس ثورية». ودفعه الاجماع الوثيق على معارضة طغيان باتيستا في المراحل اللاحقة الى ان يفكر بمفهوم «حرب الشعب» وأكد الدور الذي قامت به الولايات المتحدة في مساعدة ودعم باتيستا خلال معظم أيام الحرب بغضه لـ«امبريالية اليانكي»! وكان سلوك السياسيين الانتهازي، المعارض لباتيستا، والذين ارتبطوا بكاسترو لمنفعة شخصية فقط، قد أثار اشمئزاز تشي من الطريقة الديمقراطية التي ابرزت أمثال هؤلاء المتواطئين الجبناء. وفوق ذلك كله فقد اكتسب تشي من الخبرة الحقيقية في بدء حرب تحرير بمجموعة صغيرة، والتي تكبر لتصبح بحجم فرقة في الجيش، بمجموعة من الأفكار المرنة وغير الماركسية عن مجموعات رجال العصابات بوصفهم «حملة لواء» الثورة. وكان النجاح يتوقف أيضاً، بنظر تشي، على قيادة الزعيم الموثوقة التي كانت

أكثر أهمية من تنظيم حزب باكمله بكوادره المجهولة. وكان اكتساب مجموعة الثوار الصغيرة لقواعد شعبية شرطاً للنجاح.

وقد طبق تشي، منطلقًا من خبرته الخاصة في حرب العصابات في كوبا، مبادىء أساسية تتناول معظم الاستراتيجية العسكرية اللازمة لقيام ثورة عالمية. وثمة ثلاثة أفكار في كتابه «ذكريات عن الحرب الثورية الكوبية» تتكرر دوما، وهي تشكل المبادىء الأساسية لتصوره الشامل في المستقبل.

١ — الصراع الفعلي هو أفضل طريق لتعلم القتال وخلق رجل ثوري. فالنظرية، مهما بلغ شأوها، لاتستطيع ان تصنع مقاتلاً قديرًا. إن خوض التجربة في حرب ثورية هو الذي يصنع رجل العصابات الحقيقي ويميزه عن الحالم أو المتآمر في الخفاء.

٢ — الصراع الحقيقي يصنع المنظِّر كما يصنع المقاتل أيضاً. فقد يستطيع الرجل ان يلتحق بمجموعة الثوار وهو جاهل كلياً بالإيديولوجية، ولكنه لا بدَّ له في النهاية من ان يتعلم شيئاً من الإيديولوجية. فيجب ان يطور إذن وعيه الاجتماعي كرجل ثوري جنبا الى جنب مع مهارته العسكرية، فمهارته العسكرية وحدها، لن تساعده على مواصلة الحرب الفدائية. وهكذا يستخلص ان افضل المقاتلين هو المقاتل الذي يتمتع بمعرفة الشؤون السياسية وهو مرشح، أكثر من أي شخص آخر لأن يصبح قائداً بعد تحقيق النصر، لأنه أكثر واقعية من أي شخص لم يقاتل.

٣ — ان لمجموعة رجال العصابات صفات باطنية خاصة. وان

احتكاك تشي بمجموعة من الرجال الاشداء الشجعان والمثاليين في السيرا مايسترا علمته مفهومًا بطوليًا عن رجل الفداء. فهناك صفحات من كتابه « ذكريات » مليئة بعبارات الشكر والامتنان للرفاق الذين ماتوا في الحرب. وقد ساعد تشي في خلق أسطورة عن رجل العصابات البطل، على الرغم من أن هذا جرى بعكس فكرته عن المساواة. وعندما جاد هو بروحه كان قد حقق أسطورته الخاصة.

الفصل الثالث

نظريات حرب العصابات

قد لا يوافق الخبراء العسكريون أمثال الكابتن ليدل هارت على المقدمات المنطقية السياسية التي حفزت تشي غيفارا، ولكنهم متفقون على أن نظرياته عن حرب العصابات هي بمثابة دراسات استراتيجية لامعة. فكتابات تشي حول الموضوع كانت ثورية حقًا، فهي تضع مخططا توضيحيًا عن كيفية انتصار انتفاضة تقوم بها مجموعة رجال ضد قوى الجيوش الحديثة والتكنولوجيا. فوجود حد ادنى من الموارد، وقليل من الدعم الشعبي، والمواصلات المتواضعة، لا تحول دون البدء بانتفاضة يمكنها ان تطيح بجيش نظامي مادامت تضم الى صفوفها كل يوم أفواجاً جديدة من المتطوعين. فليس للقنابل الذرية سوى نفع محدود في قمع رجال العصابات في الادغال، ولا تستطيع الدبابات القيام بمهامها في الغابات والجبال. كان نجاح الثورة الكوبية حافزًا للقيام بثورات عديدة أخرى، لقد كان أثر الثورة الكوبية عالميًا. فمن فيتنام الى الكونغو ومن شيكاغو الى البرازيل سيطرت نظريات تشي على المخيلة الشعبية، وقد صدت وهزمت الجيوش الحديثة المعدة لتحطيم كل شيء إلا هذا النوع من

القتال. ونظرًا لوجود اختلاف في عوامل سياسية واجتماعية الى جانب الاستراتيجية العسكرية فقد نجح رجال العصابات في اماكن مثل الجزائر وفيتنام، وفشلوا في الملايو وبيرو وبوليفيا. وتورطوا في قتالهم في غواتيمالا، وكولومبيا، وفنزويلا والفيلبين. ومع ذلك فليس من بين هذه الحروب حرب كان يمكن لها ان تكون مشابهة للأخرى بدون تأثير تشي غفارا.

يبدأ تشي كتابه حرب العصابات الموضوع عام ١٩٦٠، بعبارة شهيرة. وهي أن الثورة الكوبية «أثبتت قدرة الشعب على تحرير نفسه من حكومة ظالمة باللجوء إلى حرب العصابات». ويواصل كلامه فيقول:

١ - القوى الشعبية يمكنها ان تفوز بحرب ضد الجيش.

٢ - ليس من الضروري دائمًا الانتظار الى ان تنشأ حالة ثورية. فهذه يمكن خلقها بنواة ثورية.

٣ - تعتبر المناطق الريفية في البلدان المتخلفة في الأمريكيتين أفضل ساحات قتال للكفاح المسلح.

هذه المعتقدات سمحت لتشي بأن يخلص الى استنتاجات معينة تدحض سياسات الأحزاب الشيوعية الرسمية في امريكا اللاتينية. فاذا كان بمقدور القوى الشعبية أن تحرز نصرًا ضد الجيش، فليس هناك اذن ما يبرر «موقف المتفرج الذي يقفه الثوريون الزائفون»، الذين يقولون بأنه لا يمكن إلحاق الهزيمة بجيش من خارجه. واذا كان بالامكان خلق وضع ثوري فلا حاجة للانتظار إذن حتى تتهيأ «كل» الظروف المطلوبة لثورة

نظرية ماركسية. واذا كان في مقدور رجال العصابات ان ينجحوا في الريف أيضا، فلا حاجة للانتظار الى ان يستولي المدنيون والمجموعات الصناعية على المدن. وهؤلاء عرضة لهجوم مضاد ناجح يشنه الجيش عليهم.

ومع ذلك فان تشي لا ينكر ان قوة المجموعة الريفية الصغيرة. لا يمكنها ان تعمل إلا ضمن شرط واحد فقط. عليها أن تعمل كطليعة مسلحة للجماهير، ولذا فهي لاتستغني عن دعم الجماهير. وهذا شرط مطلق. فبالدعم الشعبي لاتكون القوى الفدائية في وضع دون وضع الجيش من حيث العدد، وإنما تكون دونه في قوة العتاد. ويمكن لمجموعة الثوار ان تحصل على مساعدة الشعب فترة من الزمن بينما لا يحصل الجيش الا على مساعدة المصالح الخاصة والبيروقراطيين الذين يستغلون البلاد، وهؤلاء بدورهم يتلقون المساعدة في الغالب من قوة اجنبية. وهكذا اذا ما دعم الشعب او السكان المحليون القوة الثائرة فلا بد من فوز رجال العصابات.

اذن، المقاتل في حرب العصابات هو أكثر من رجل عصابات. انه مصلح اجتماعي، يرفع السلاح من اجل الشعب، ويقاتل كي يغير الحكومة. ومن اجل ان يكون فعالاً، عليه ان يعرف معرفة تامة منطقة العمليات التي يكون فيها، بحيث يستطيع الانسحاب بسرعة، ويختفي بسهولة. وعليه ان لا يتورط في عمل ما، ما لم يتأكد من النجاح، مستغلاً جميع نقاط الضعف في عدوه، وملتزمًا باستراتيجية «اضرب

واهرب». والحرب الفدائية بطبيعتها . هي مرحلة مبكرة من الحرب الكلاسيكية ، ولا يمكنها . وحدها . ان تربح المعركة . ولكن التدريب هو الذي طور نواة من الثوار الى جيش صغير ، قادر على خوض معارك نظامية ضد الجيش المتعسف. وكما ان كل فدائي « هو سيد نفسه » ، فمن واجبه ان يحمي حياته الخاصة ، بنفس الحرص الذي يبديه الجنرال في حماية نفسه . هنا يقوم تشي بالتمييز بين الجندي العادي والمقاتل في حرب العصابات . «كل فدائي يجب ان يكون مستعدًا للموت . لا دفاعًا عن مبدأ . بل من أجل تحويل ذلك المبدأ الى حقيقة».

لما كان هدف الجيش النظامي تدمير كل حرب من حروب العصابات . فان هدف رجل العصابات اكتشاف استراتيجية الجيش واحباطها. ان الحاق الهزيمة بالجيش هو هدف رجل العصابات على المدى الطويل ، لأنه حينئذ يستولي على سلاحه ليحاربه به ، ثم يسهل عليه فيما بعد الاستيلاء على ذخيرة لذلك السلاح من الجيش نفسه . ويجب ان تخطط حملة العصابات الشاملة بحيث تنفذ على ثلاث مراحل :

١ – الصمود والتكيف مع ظروف حياة حرب العصابات .

٢ – تشتيت قوة العدو في المناطق التي حددها رجال العصابات كمناطق خاصة بهم .

٣ – القيام بهجمات على العدو في أرضه وذلك بتركيز الضربات على مواصلاته وقواعده.

وكانت اوامرتشي للحملة حازمة . اضرب العدو بثبات . دعه يشعر بأنه معرض للإنهاك والتطويق . علم السكان المحليين أهداف الفرقة الفدائية . بحيث يرون مصالحهم في الانتفاضة . استخدم التخريب كي تنال من معنويات العدو وادفع به الى الارتباك والعجز بقطع مواصلاته . تجنب الأعمال الإرهابية العديمة النفع . لا تحاول ان تحتفظ بأراض واسعة جدًا . جدد مجموعات من رجال العصابات بضم عدد كاف من المتطوعين. هذه المجموعات الجديدة سوف تحتفظ بمزيد من الأراضي الى أن يصبح بالإمكان البدء بهجوم على العدو وعلى أرضه .

وفي كل الأحوال ، لا بد أن تتكيف التكتيكات المرحلية مع الظروف العامة ، بحيث يتوجب على قوة رجال العصابات ان تستغل كل الأحداث وتحولها لصالحها . الحرب الكلاسيكية يمارسها العدو وحده اما الثوار فلا يجوز أن يعرف أحد كيف يتحركون أو متى يهجمون . ثم لتكن السرعة شعارهم في جميع الهجمات . «ان العناصر التي لا يستغني عنها رجال العصابات هي المفاجأة والمخادعة والإغارات الليلية » . وعلى رجال العصابات ان يكونوا «حازمين» في هجومهم وفي معاملتهم القتلة والمجرمين. لكن عليهم ان يكونوا رحماء بجنود العدو فيحررون السجناء منهم ويعتنون بجرحاهم . وعليهم ان يظهروا تعاطفا كبيراً مع السكان المحليين ويحترموا العادات المحلية ، وبهذه الطريقة سوف يثبتون تفوقهم الخلقي على العدو.

ويواصل تشي في كتابه «حرب العصابات» تحليل مختلف استراتيجيات القتال على أراض صالحة لحرب العصابات ثم على أراض يصعب فيها شن حرب العصابات، ثم في المناطق المدنية. ثم يصف انواع الأسلحة التي ينبغي استخدامها في كل منطقة، وعدد الرجال المشتركين والإجراءات أو التكتيكات التي تمليها جغرافية كل منطقة. فالأرض التي تسمح بشن حرب العصابات تكون ملائمة لأعمال التخريب وغنم الأسلحة والحصول على المؤونة. أما الأراضي التي يصعب فيها شن حرب العصابات فانها تتطلب مجموعة لها قدرة كبيرة على التحرك. واما العمل في المناطق المدنية فلا يكون إلا جزءا من استراتيجية شاملة، ويجب ان يوجه كليا من «خارج» المدن. ويخلص تشي في هذا الفصل من كتابه الى التأكيد على أولوية الريف كقاعدة لجميع العمليات الفدائية. أما الثورات المدنية فيجب أن لا تبدأ إلا عندما تكون الحرب في المناطق الريفية بحاجة الى المساندة.

ويطور تشي في الجزء الثاني من كتابه الفكرة الرئيسية عن طبيعة رجل العصابات وعن مجموعة رجال العصابات. فدور رجل العصابات كمصلح زراعي و «كمقاتل من أجل حرية الشعب» يلقى مزيدًا من التحديد والتوضيح. إذ يتوجب على كل ثائر ان يتحلى بخلق كريم وان يتنزه في تصرفاته عن ارتكاب أي خطأ. «عليه ان يكون زاهدًا... وأن لا يغفل عن مساعدة المزارع فنيًا وخلقياً واقتصادياً وحضارياً». هذا السلوك يمهد لدور الثائر بعد الفوز بالحرب عندما يصبح اصلاح البنيان

الاجتماعي مواصلة طبيعية لحرب العصابات نفسها.

وبهذه الطريقة يمهد الثائر لنفسه ان يطبق في المستقبل العدالة والقانون فيعاقب الخونة ويصادر الفائض من الأرض والثروة الحيوانية لإعادة توزيعها على المزارعين المحتاجين وكذلك مصادرة أملاك اعداء الثورة ومصالحهم. ويجب عليه ايضًا ان يحاول تأسيس التعاونيات إذا امكن، وان يثقف السكان المحليين عقائديًا. في هذه المرحلة سيكون هناك تفاعل بين الثوار والمزارعين. فرجل العصابات الذي يكون في كثير من الأحيان رجلا مثقفاً متحدرًا من الطبقة الوسطى سوف يستخدم ثقافته في تنوير المزارعين، الذين سيشرحون له حقيقة أوضاعهم الاجتماعية تلك الاوضاع التي عرفها الثائر من قبل وعاشها. كما يمكن للمزارعين أيضًا ان يعطوا الثائر درسًا عمليًا فيما يجب ان يبدأ به من الاصلاحات الملحة.

ويمضي تشي في شرح الصفات الخلقية والبدنية والعقلية التي يجب ان يتحلى بها الثائر: انها مزيج غريب من الفضائل المجيدة والصفات الحميدة كالبراعة والاحتراس والتفاؤل والتعقل والصلابة. كما يجب على الثائر أن يكون شجاعًا لا يهاب، قوياً لا يتعب، عاقلا لا تسيطر عليه العواطف. رحيماً من غير ضعف. شديداً من غير ظلم. ويجب عليه أن يصمد امام كل حرمان وجوع وعطش ومرض والم وعذاب، بعد هذه القائمة من الاختبارات يصرح تشي بأن الفدائي كي يتحلى بكل هذا فلا بد له من هدف يغذيه. «هذا الهدف يجب ان يكون بسيطًا، وملموسًا وليس معقدًا ولا خياليا، بل يجب ان يكون محكما وواضحًا بحيث يستطيع

الرجل من أجله ان يضحي بحياته دون أي تردد». وليس من الضرورة ان يكون الهدف شيئًا عظيمًا جدًا. فهو بالنسبة للمزارع قد يكون امتلاك الارض، وللعمال أجرًا أحسن. ويشير تشي الى ان الهدف كلما كان أكثر تحديدًا كان تصميم الفدائي أقوى وأشد.

وينتقل تشي الى المظاهر العملية لحياة الثائر، معالجًا كل جانب من القضية. ويقلل تحليله من حاجات مجموعة الثوار الى حد أدنى اساسي ما عدا ثلاثة أشياء تعتبر زائدة وهي اساسية بالنسبة لتشي نفسه - التبغ وكتب للقراءة ودفتر ملاحظات لتدوين الأفكار والحوادث. وانسجاما مع طبيعته العملية يشرح تشي أفضل أنواع الحقائب الظهرية. وتعتبر تجربته الكوبية تجربة حيوية أفاد منها في تحليله لتجهيزات الثائر. كما في وصفه للمراحل الثلاث في حملة رجال العصابات التي تتحرك من مرحلة القواعد المتحركة الى مرحلة القواعد شبه المتحركة في التجنيد، ثم مرحلة القواعد الثابتة والهجمات الصدامية في الطور الأخير. وهنا يضيف تشي قليلاً الى كتاباته السابقة عن الحرب الثورية الكوبية لكي يؤكد ضرورة جعل الأرض الخاصة برجال العصابات دولة صغيرة، وقاعدة للعمليات من أجل هجمات على أرض العدو للاستيلاء على الأسلحة الثقيلة مثل المدفعية والدبابات. ويحلل أيضًا مفهوم العمل المدني ويقسمه الى فصيلين. في أراضي الثوار تتعلق المسألة بالحكومة والتثقيف العقائدي. اما في خارج اراضي الثوار فيتجلى العمل

المدني بصورة رئيسية في جمع الأموال والقيام بالدعاية وكسب المؤيدين وجمع المعلومات والقيام بالتخريب.

ثم يناقش تشي دور المرأة في حرب العصابات. وهو يشجب في البدء «العقلية الاستعمارية» لأولئك الأمريكيين اللاتينيين الذين يبخسون النساء قدرهن، ويجابههم بالحقيقة التي اثبتت أنه ظهر بين النساء مقاتلات رائعات، وبوسعهن ان يخدمن بمجموعة الثوار فيعملن خياطات وطاهيات وممرضات. وفي العمل المدني تبرز أهميتهن كمعلمات وأهم من ذلك كله استخدامهن جاسوسات ينقلن الرسائل بين الثوار ومناطق الحكومة. ويجب ان لا يكون وجود النساء سبب منافسة جنسية بين الثوار، فعلى المرأة الثائرة ان تحسن التصرف مع جميع الثوار، على الرغم من ان تشي لا يجد سبباً يمنع رجلاً وامرأة ثوريين من النوم معاً اذا كانا «عاشقين ولا تربطهما التزامات أخرى».

ويعتبر الطبيب الثائر ذا أهمية خاصة بالنسبة لتشي. وتبرز أهميته الكبرى من الناحية النفسية، وخاصة في الأيام الأولى للمجموعة عندما يكون وجوده مصدر قوة لعزيمة الجريح والمريض. فالأدوية دون الراحة أهمية. «فبالنسبة لرجل يتألم تكون لحبة الأسبرين اهميتها عندما تمتد بها يد صديق يشعر مع ذلك المريض ويتألم لألمه.». ثم يواصل تشي فيشرح بأسلوب فني كيف يمكن خلق مستشفيات بدائية، من استعمال الحمالات، إلى انجاز العمليات الجراحية في الميدان وغيرها من مستلزمات العلاج في الحرب.

ثم يعالج تشي مسألة الدعاية ويعرّفها بأنها التقارير المرسلة . وأن على جرائد الثوار والراديو أن تقول الحقيقة مهما كلف الأمر. فيجب ان يكون هدف دعاية الثوار قول الحقائق عن المعارك وعن القوة المتنامية ، لأن دعاية الحكومة لا شك تكذب ما يذيعه الثوار كذلك فإن برنامج الثوار الاجتماعي لا بد أن يوضح أيضًا . ويعتبر الحصول على المعلومات من العدو امرًا حيويا آخر . فغالبًا ما يكون المزارعون . عكس النساء ، مخبرين سيئين .

ويمضي تشي فيبحث في تدريب المتطوعين وبنية قوة الثوار. يجب ان لا تمنح الترقيات إلا للرجال الذين يستحقونها فقط . والذين يثبتون جدارتهم من خلال القتال ، لا كما هو الأمر في قانون الجيوش النظامية في بلدان امريكا اللاتينية . فلا يمكن ان يكتب النجاح لقوة الثوار ان لم يكن هناك قائد فذ يمنحها الوقت الكافي للتدريب في سرية تامة . ذلك ان قوة الثوار لم توجد لضرب الجيش النظامي وقلب الحكم فحسب . بل لكي تحمي السلطة بعد الانتصار. ويجب ان يسرح الجيش النظامي ليحل محله جيش الشعب وقوامه فلاحون وعمال وجنود .

ويحلل تشي في آخر فصل من كتابه « حرب العصابات » وضع كوبا الراهن ومستقبلها . وهو يشرح ما فعلته الحكومة الثورية منذ ان تسلمت السلطة . ويظهر كيف ان هذه الأعمال هي النتائج المنطقية للحرب ذاتها . وكان مؤكدا ان تقود هذه الإصلاحات الراديكالية الى

إحداث ثغرة في القوة الامبريالية للولايات المتحدة التي درجت على حكم كوبا ، ولكن كوبا لم تعد بحاجة الى الولايات المتحدة . ولا هي بخائفة منها ، إذ لا حاجة للبلدان التي تحرر نفسها أن تخشي القوى الاستعمارية التقليدية والقوى الاستعمارية الجديدة التي تستعبدها اثناء عمليات التحرير. ويشرح تشي العقوبات الاقتصادية والضغوطات التي فرضتها السياسة الأمريكية الشمالية على كوبا ، وينبغي ان يكون في مقدور هذه الضغوطات تحطيم الاقتصاد الكوبي . قد تحاصر الولايات المتحدة جيش كوبا وسلاح البحرية والسلاح الجوي وتلحق الأضرار بها . لكن الثورة ستبقى حية لأنها وفت بوعودها للشعب الكوبي الذي سيدافع عن الثورة حتى الموت .

ليس الفصل الأخير خطبة وطنية مجردة ، على الرغم من أنه كتبه في الفترة الصعبة قبل حصار خليج الخنازير في نيسان عام ١٩٦١ . كان لدى تشي نقطة تشغل باله اكثر من غيرها وهي : ان الثورة ، لاتستطيع الصمود أمام الخطر الخارجي والداخلي ، إلا اذا سارعت بالوفاء بوعودها للجماهير ، بحيث تجعل اهدافهم كلها تطابق أهدافها ويشعرون بأن بقاءهم رهن ببقائها ، وعندما تؤدي حرب العصابات الناجحة الى ثورة فيجب أن يثور الشعب بأكمله بعد أن يكون قد وزع عليه السلاح ليدافع به عن مكاسبه . فبهذه الطريقة يزول الخطر الخارجي حتى لو كان مصدره قوة كبرى ، اذ تعتبر الأمة بكاملها جيشاً ثائرًا ضخما يدافع عن كل شبر من الأرض بنفس الروح التي يتمتع بها الثوار الأصليون . وفي عرضه للموضوع

يتذكر تشي الاخفاق التام الذي منيت به غواتيمالا ، حيث لم يكن الشعب مسلحًا تسليحًا كافيًا ليحمي نظام أربنز الثوري .

لايلقى كتاب «حرب العصابات» اهتمامًا من المثقفين الغربيين بالمقارنة مع كتابات تشي عن النظرية الاشتراكية ، لأن محتوياته تتنافى واوضاعهم الخاصة ولأن فيه بضعة أفكار عولجت بروح التحدي . ومع ذلك فللكتاب أهمية أكبر بالنسبة للعالم الثالث تفوق كل كتابات تشي الأخرى باستثناء رسالته الى مؤتمر القارات الثلاث . عندما يفكر الثوريون في أمريكا الجنوبية وافريقيا وآسيا في تشي . وعندما يفكر به المناضلون السود في امريكا الشمالية . فانما يفكرون به من خلال كتابه هذا . فهو فضلاً عن أنه يعطيهم فكرة عامة كاملة عن حرب العصابات كطريقة ، ويقودهم خطوة خطوة في هذا المضمار . فإنه يكرر دوما أن ماحدث في كوبا يمكن ان يحدث في أي مكان آخر مهما اختلفت المقاييس وبعدت المسافات . على الثوريين ان لا يصغوا للأحزاب الشيوعية التقليدية . ولا للعناصر اليسارية الأخرى . ممن يعزفون على وتر الظرف المناسب . والوقت المناسب ، دون ان يتحركوا عمليا محاولين الاستيلاء على السلطة . ويقول تشي : ضعوا الأحزاب والمذاهب والنظريات جانباً ، لأن الثورة لا تحتاج الا الى بضعة رجال ، وبضع بنادق ، وإلاّ الى بعض التدريب مصحوباً بروح التصميم على الانتصار . ما فعله بضعة كوبيين يستطيع ان يفعله الجميع ، فليس هناك من حاجة ماسة لدعم شعبي أو لمذهب عقائدي . فاذا كانت البلاد فقيرة ، فسوف يدعم الشعب الثوار فور بدء عملياتهم ،

فالقتال في حرب التحرير هو الذي يعلم الثوار النظرية المناسبة لهم. الثورة تغذي ذاتها.

وفي كل مكان ذهب اليه. كان تشي يعترف بأن الثورة الكوبية كانت تمتلك ثلاثة عوامل تعمل لصالحها: قيادة فيدل كاسترو. وعدم استعداد الولايات المتحدة للحرب. والوعي الطبقي للمزارعين الكوبيين الذين عانوا من نظام الزراعة. ومع ذلك فهو يذكر أن الثورة الكوبية ليست حالة فريدة. فهي يمكن ان تتكرر في أي مكان آخر. فالعوامل الأساسية يمكن ان توجد في بلدان أخرى متخلفة وشبه نامية. فاذا غاب أحد العوامل النافعة للثورة فلا بد ان يتولد عامل آخر يساعد الثوار الجدد ويشد أزرهم. فما جرى في كوبا يمكن الاهتداء به وتطبيقه.

اعتبر النقاد كتاب «حرب العصابات» كتاباً مشحوناً بالثقافة وسعة الاطلاع. اذ يبدو أنه يعقلن الاستجابات المرتجلة للأوضاع التي تجاوزت قبضة فيدل كاسترو. ولم يرفض تشي أبدا هذا الانتقاد. ذلك لأن التحليل ما هو إلا عقلنة النجاح والفشل الماضيين. ان ما رفضه هو اعتبار التجربة الكوبية تجربة فريدة ومنعزلة. قد تكون الحرب الكوبية أساس كل نظريات تشي تقريبا. ولكنه كان يعتقد أن في وسع كل العالم تقريباً دراسة النظرية الكوبية وتطبيقها.

قال هاربرت ماتيوس عن كتاب ريجي دوبريه «ثورة في الثورة» بأنه صياغة جديدة لكتابات تشي والتي هي بدورها مأخوذة من صميم

أفكار فيدل كاسترو وتجاربه. ومما لاشك فيه أن دوبريه كان أفضل تلامذة تشي. وأن تشي وفيدل اتفقا إلى حد كبير. على النقاط الواردة في «حرب العصابات». الذي يعتبر القاعدة لسياسة فيدل الخارجية في أميركا اللاتينية. ومع ذلك فان الاستراتيجية العسكرية في الكتاب كانت نتاج الخبرة المشتركة لكلا الرجلين: فقد أمضى تشي الشهور الأخيرة من حياته رئيساً مستقلاً لمجموعة من الفدائيين أنيطت بهم مسؤولية شطر الجزيرة الى جزأين متخذاً القرارات بنفسه بصورة فعالة. ان الحقيقة المهمة هي ان تشي نسب التجربة الكوبية الى البيئة العالمية. كان تشي واضع النظريات بعد الحرب فضلا عن أنه كان واضع الاستراتيجيات الرئيسي خلال الحرب.

يستحيل على المرء معرفة ايهما كان الزعيم العسكري العظيم. تشي أم فيدل؟ لقد كانا صنوين متماثلين. «فحرب العصابات» عبارة عن خلاصة لأفكار تشي وأفكار فيدل الأصيلة المبنية على نتائج كان يجب أن تبدو بديهية لكل الرجال والنساء، لكل من قاتل في الحرب الكوبية. لقد آمنوا جميعاً بإمكان البدء بثورات والانتصار بها في كل بلد من بلدان أمريكا اللاتينية تقريباً. وان فيدل كان يخاطبهم جميعاً عندما قال: ان كورديلير الانديس يجب أن تحول الى سيرا مايسترا أمريكا الجنوبية. أما تشي فقد اراد ان يبين إمكانية حدوث ذلك من خلال كتيب وخوضه المعارك في بوليفيا في وقت لاحق. ان نجاح الكتيب ليس موضع شك أو تساؤل بالنسبة لذوي القبعات الخضر وآخرين من القوى المضادة للثورة

والقوات الخاصة من الأمريكيين الشماليين كالكتاب المدرسي بالنسبة للطلاب .

ومع ذلك فان تشي يبدو لنا في النهاية ، على نحو فريد ، فيلسوفاً للثورة أكثر منه معلم عمل . وكما قال فيدل في مرثاته لتشي في ١٨ أكتوبر عام ١٩٦٧ :

« عندما نذكر تشي لا نذكره بشكل خاص لفضائله العسكرية . لا ! فالحرب وسيلة وليست نهاية . الحرب وسيلة الثوار . الأمر المهم هو الثورة ، القضية الثورية ، الأفكار الثورية ، الأحداث الثورية ، الوجدان الثوري . الفضائل الثورية » .

ان « حرب العصابات » ليس إلا كتيباً وهو يعتبر أولا بمثابة تحد لمنظرين آخرين للثورة . فمفاهيمه الأساسية الثلاثة هي : ان القوات الشعبية تستطيع دحر الجيوش . وان البؤر الثورية تستطيع الامتداد لتخلق ثورة شاملة . وأن الثورة لا بدّ أن تنتصر في الريف . هذه المفاهيم تحدٍّ صريح لنظريات البلاشفة والأحزاب الشيوعية الاخرى . ولقد اتضحت خطورتها على أثر الانشقاق الصيني السوفيتي . فجرت المقارنات المألوفة بين نظريات ماوتسي تونغ ونظريات تشي حول حرب العصابات . فكان رأي الأثنين متفقا حول اولوية أساليب حرب العصابات . واعتبار الريف منطقة للعمليات ومع ذلك فان تشي والثوريين الكوبيين الآخرين يؤكدون دوماً بأنهم ربحوا الحرب ضد باتيستا دون علم بالتجربة الصينية . ويحتمل ان

يكون هذا القول صحيحاً ، فحتى لوكان الكوبيون مندفعين للتأكيد على طابع ثورتهم الفريد فهناك من التطابق ما بين النضال الكوبي والنضال الصيني ما يكفي للافتراض ، بأن قادتهم توصلوا الى استنتاجات متشابهة. فكلتا الانتفاضتين بدأت في المدن ، حيث فشلت في الحصول على الدعم ، وخسرت حين اصطدمت مواجهة مع الجيش النظامي . وكلتاهما صمدت في المناطق الريفية ؛ حيث كسبت الدعم الشعبي وبدأت في الحاق الهزيمة بالجيش النظامي . وهذا ما دفع الثورتين لأن تجعلا من الإصلاح الزراعي هدفها الثوري الرئيسي ، ووضع الفلاحين في مكانة البروليتاريين المدنيين ، كطبقة ثورية جديدة في الصين وكوبا .

كان لحقيقة انتصار الثورة الكوبية . بدون دعم الحزب الشيوعي الكوبي ولكون الكوبيين انتصروا قبل ان يتخذوا هم أنفسهم الشيوعية عقيدة ، ما يعلل ، بصورة رئيسية ، عدم الترمت في كتابات تشي في «حرب العصابات» . حتى الصينيون لم يجرؤوا مطلقاً على تقديم مثل هذه البدعة . فقد دفعت التجربة الكوبية تشي لأن يبشر باستقلال مجموعة الثوار خارج السيطرة المركزية لوجدانية الأحزاب الشيوعية المتمركزة ، على الأغلب ، في المدن . فقد جرى تطوير هذه النظرية أكثر من ذلك على يد دوبريه في كتابه «ثورة في الثورة» ؟ إنه يذكّر بإحدى القضايا التي قادت إلى الانشقاق بين الفوضويين والماركسيين في القرن التاسع عشر. هل يتوجب ان يوجه النضال الثوري من قبل تنظيم مركزي لحزب ، أم بواسطة أولئك الذين يخوضون القتال في المكان نفسه؟

إن بدعة الكوبيين هذه قد انبثقت من تعظيم تشي للثائر نفسه . ففي مقال بعنوان «من هو المقاتل الثائر» قدّم تشي في عام ١٩٥٩ صورة رائعة للبطل المثالي ، «مشبها إياه بالملاك الهادي الذي هبط على المنطقة ، لمساعدة الفقير دون اهتمام يذكر بالغني» . لذا فالثائر المقاتل كالشيء القدسي تقريباً ، هدية علوية هابطة من السماء ، نظير روبن هود ، أو المنقذ ، هو الفارس الذي يتصرف بنبل وشهامة حتى مع اعدائه . واذا اضيفت هذه الرؤى التكتيكية والحضارية والخلقية التي حددها تشي أيضاً كضرورات بالنسبة للثائر . فإن صورة الفدائي تكون قد حلت محل صورة القديس . ان هذا المفهوم المثالي لرجل العصابات بعيد عن مفهوم المجرم المتهور ، الذي يتربص في الغابات ، لينصب الفخاخ و يعيث في الأرض فساداً شأنه شأن شخص حقير يحمل قضية . والفرق بين هذا وذاك كالفرق بين الفاتحين الاسبان ، وصور القديسين المسيحيين المناضلين الذين نصبوهم في الكنائس الكاثوليكية في الامريكيتين كي يبرروا أعمالهم السالفة .

إن اعطاء الثوار شكلاً مثالياً يحمل معنى سياسياً . فقد ساعد فيدل كاسترو و رفاقه المقربين من ثوار السيرا مايسترا على ان يستولوا على المناصب الهامة في الحكومة الجديدة بعد سقوط باتيستا . كان باستطاعتهم أن يبرروا لأنفسهم إقصاء كل السياسيين والمعتدلين الذين لم يقاتلوا في الجبال . لذا فإن قيام تشي بإسباغ صورة البطل على الثائر ، يهدف الى تبرير استيلاء الثوار الكلي على السلطة في كوبا . وكتب تشي يقول «ان أفضل تدريب يقوم به

الجندي في حرب التحرير ، هو خوض حياة حرب العصابات نفسها . ان القائد الذي لم يتعلم مهامه الصعبة من خلال ممارسة حمل السلاح ليس بالقائد الأصيل » . وقد انتبه ريجي دوبريه الى هذه النقطة عندما كتب عن الرجال الذين قاتلوا في السيرا مايسترا فقال «لقد خاطروا بكل شيء من الناحية الستراتيجية ، كي يفوزوا بكل شيء . وفي النهاية استحقوا ان ينالوا كل شيء» . ان قادة الحزب الشيوعي في كوبا لم يخاطروا بكل شيء ، وكذلك السياسيون المنفيون ، ومثلهم الجماعات الديمقراطية التي وقفت ضد باتيستا . إنهم لا يستحقون إلا ان يكونوا في مرتبة أدنى من أولئك الذي حصدوا نتاج نصرهم من خلال القتال .

وقد وصف تشي في مقالته المكتوبة عام ٥٩ النصر المسلح للشعب الكوبي بأنه «معدّل للعقائد القديمة» . ان العقائد القديمة كانت لأولئك الذين ادّعوا الثورية ، ومع ذلك فقد راحو يؤجلون بدء القتال إلى اللحظة المناسبة التي لم تجيء قط . لقد تلمسوا النجم الأحمر في نهاية قوس قزح . ان أولئك الثوريين الزائفين هم بصراحة أعضاء الأحزاب الشيوعية التقليدية في أمريكا اللاتينية . لذا فان تشي بدأ مناظرة ما زالت محتدمة منذ ذلك الحين بين المؤيدين لاتباع أسلوب «السلم» أو اسلوب «العنف» للاستيلاء على السلطة . وإلى حدّ ما قاد مذهب تشي في هجوم حرب العصابات المباشر إلى وضع نهاية للأحزاب الشيوعية التقليدية في أميركا اللاتينية بصورة أكثر فعالية حتى من الطرق التي اتبعتها الحكومات العسكرية التي اضطهدتهم . وكثيراً ما كان تشي يردد . قد يكون مفعول

الفكرة أقوى من مفعول فوج.

وفي أميركا اللاتينية انفصل اتباع النظريات «الغيفارية» عن الأحزاب الشيوعية التقليدية. فقد كان المثال الكوبي أكثر إثارة للخلاف في الدوائر الراديكالية في أمريكا اللاتينية حتى أقوى من الانشقاق بين روسيا والصين. على الرغم من أن الروس قد عمدوا إلى دعم مؤيدي التغيير «السلمي» للحكومة عن طريق الاضطرابات والتحريض والتسلل. بينما راح الصينيون يدعمون التغيير «العنيف» عن طريق ثورة حرب العصابات. لقد أحدث الخلاف ضعفاً. وسبب في حدوث انشقاق في الصفوف الراديكالية، قد يكون أعاق عقرب ساعة الثورة عدة سنوات. ولا شك في أنه ساهم في هزيمة تشي نفسه في بوليفيا ثم مقتله هناك، ولكنه كان صداما لا بد منه إكراما لمستقبل شبه القارة.

من بين المنظّرين الثلاثة الرئيسيين لمسألة الهجوم المباشر لحرب العصابات، وهم كاسترو، وغيفارا، ودوبريه، كان تشي يبدو أكثرهم أهمية، فهو أول من أبرز المسألة، وأول من خاطر بكل شيء لكي يثبت صحة القضية، وأول من مات بسبب نظرياته. قد يصمد الشيوعيون التقليديون أمام الهجمات الإيديولوجية التي يتضمنها كتاب «حرب العصابات» وقد يعيشون ليروا بأم أعينهم محاولات أخرى تسير على خطى النموذج الكوبي وتلقي هزيمتها على أيدي القوات الحكومية، ولكنهم على الأرجح لن يصمدوا، أمام الاتهام الموجه اليهم من خلال المثل الشخصي

الذي قدمه تشي نفسه. ان عودة تشي للقتال وموته كان بمثابة لهم.

أحدث كتاب «حرب العصابات» من العوامل الانفجار ظهوره أكثر مما أحدثه البيان الشيوعي في حينه. ولقد خاض بعض والطلاب من الذين اقتدوا بكتابات تشي ومثله حروبهم الخ التحرير مختارين، أحياناً، المدن والجامعات في البلدان النامية قتال بدلا من الجبال والغابات، وإذا قدر لهم ان يربحوا، فإن تن قد برر لهم حق الاستيلاء على جهاز الحكومة الكامل، وتجا الانتهازية التي توجهها له المؤسسات الديمقراطية والأحزاب القائمة. كذلك فقد أعطى الثوار مزيداً من التبرير للاستهزاء باراد الشيوعي في بلادهم، وذلك بأن من حقهم بل من واجبهم ا تنظيمهم الثوري الخاص مكان سلطة قوة الحزب التقليدي ال الكبر والضعف. ويرى تشي أن على مجموعة الثوار أن تقاتل وان تحكم مدعومة من الشعب. أما الحكومات والأحزاب القديمة ال دعم الشعب فيجب أن تندحر أو تهمل. حرب العصابات تصنع والثورة تصنع ذاتها.

الفصل الرابع

تطور مسيرة الثورة الكوبية

هيأ فيدل كاسترو مهمة الثوريين الشباب الذين دخلوا الى هافانا يوم إن خلع باتيستا في عام ١٩٥٩ . وقبل ذلك بخمس سنوات . وعندما أطلق باتيستا سراحه من السجن صرح كاسترو بأن : «حريتنا لن تكون مهرجاناً أو استراحة ، وإنما نضال وواجب» . وكان معظم رفاق فيدل غير مهيأين بشكل كاف لخوض الصراع ولمهمة إدارة البلاد . ولكن تشي كان أحد القلائل الاستثنائيين. وحتى لو لم تكن لديه خبرة عملية في الاقتصاد أو الدبلوماسية أو الادارة أو السياسة . فقد كان رجلاً مثقفاً . وصاحب فلسفة ، سبق له ان اظهر مهارات ادارية في السيرامايسترا بعكس الأبطال الشجعان – الأميين تقريباً – أمثال جوان ألميدا وكاميلو سوينفيغوس (Camilo Cienfuegos) . ومع ذلك فإن مهام تشي الحقيقية داخل حكومة كاسترو كانت أقل أهمية من الدروس التي تعلّمها من مهامه والتي طبّقها فيها . تماماً ، فكما كان منظراً للثورة كان كذلك منظراً للحكومة

وثمة اختلاف في وجهات النظر حول أهمية تشي بالنسبة لنظام حكم فيدل كاسترو. فبعض نقّاد النظام يجدون فيه الرجل الوحيد الذي كان بوسعه أن يبني ايديولوجية وبرنامجًا للثورة بطريقة متواصلة ومنظّمة. ولقد أكّدت جوانا، شقيقة فيدل كاسترو، التي هاجرت من الجزيرة بعد الثورة، وأكّد معها آخرون، أن تشي هو الذي حوّل الثوار تحويلاً حقيقيًا حين جعلهم ينفّذون الشيوعية كعقيدة. وهناك مؤرخون آخرون لكوبا لم يعطوا تشي إلاّ دورًا ثانوياً دون أن يكون لـــه أثر جوهري في مسار التجربة الكوبية، واعتبروا معظم نظرياته مجرد اقتباسات لأفكار وأعمال الشعوب الاخرى. فبالنسبة إليهم كان تشي مترجمًا لسيرة الثورة الكوبية.

ويبدو أن الحقيقة تكمن بين الطرفين. فما لا شكّ فيه أن تشي شارك في الثورة بنفس القدر الذي شارك فيه فيدل كاسترو، تقريبًا. فبدون تحليلات تشي اليقِـلَة وفصاحته الواضحة في أعمال مثل «**الرجل والاشتراكية في كوبا**» لبقيت الثورة الكوبية تعاني من فقدان التحديد والطوباوية. كان فيدل محاميًا وقائدًا أُسندت إليه مهام القوانين والبنيان والقاء خطَب الدفاع والهجوم أمام الشعب باعتبارهم هيئة محلّفين. أما تشي فكان طبيباً مهمته التشخيص والمعالجة، فهما، بالنسبة له، تعنيان الحياة والموت.

ومن خلال مركزيهما في كوبا فرض كل من فيدل وتشي مواقف مختلفة. كان على فيدل أن يبقي على استمرارية الثورة وصيانة اقتصاد الجزيرة من الانهيار. كان عليه أن يجعل من الصفقات السياسية أمرًا

ضروريًا وذلك مراعاة لمقتضيات الأمن الداخلي والقروض الخارجية. وكان عليه أن يوازي بين القوى التي يتنازعها أتباعه. وأن لا يغفل تطلعات الشعب الكوبي وشكاويه. ثم كان عليه أن يسعى لكسب الدعم الروسي دون أن يثير الولايات المتحدة إلى درجة التدخل العسكري. لقد استحوذت الأعمال اليومية لتسيير البلاد على أوقات كاسترو واهتماماته.

فبينما كان كاسترو يعالج المشاكل حال ظهورها في السيرا مايسترا ثم في هافانا بعد ذلك. كان مساعده تشي يركز على إيجاد نظرية لما اعتقد أنه يتوجب فعله. إن شهادات المراسلين توضح بأن فيدل كاسترو لم يتخيل شكل حكومته في المستقبل عندما كان يقاتل في الجبال. وقد كتب هربرت ماثيوس يقول: «لقد آمن فيدل بسذاجة (وأنا أستعمل هنا كلمته الخاصة التي قالها لي) أن باستطاعة الثوار أن يقوموا بثورة راديكالية اجتماعية بطريقة ديموقراطية. لأن هدفه الأساسي هو الثورة. أما الديموقراطية فكانت، ببساطة، الطريقة التي ظن أن بوسعه اتباعها. فقد غيَّر أسلوبه لا هدفه عندما وقع الصدام! ولمّا كان تشي دومًا الرجل المتطرف على يسار قادة الثوار. فإن اصطدام فيدل بالتقدم الديموقراطي والتضليل المفترض بأهداف الثورة يعود جزئيًّا إلى نتيجة الأخذ بنصيحة تشي.

في السنوات الأولى من الثورة ساعد فيدل وحركته في إقامة حكومة من المعتدلين والليبراليين تتألف من كهول لهم سمعة طيبة وممن كان يعارض

باتيستا. وسرعان ما اصطدمت هذه المجموعة الليبرالية مع القادة الأكثر تطرفًا من الثوار، الذين شعروا بضرورة تنفيذ وعودهم الكثيرة للمزارعين الكوبيين، وأن الاصلاح الراديكالي يتطلّب إجراءات صارمة. وبعد وقت قليل استغنى فيدل عن جميع المعتدلين واستعان برفاق لــه من السيرا مايسترا. وكما يروي سيليا سانشر فقد ظن هؤلاء بأن عليهم أن يحكموا من خلال المعتدلين ولكنهم سرعان ما اكتشفوا بأنهم سادة الجزيرة. ويومها تبلورت أفكار تشي بالنسبة لحكومة الثوار وأصبحت لها دلالتها ومفهومها. وإذا كان لا بدّ من إجراء تغييرات راديكالية، فإن قادة الثوار وحدهم، هم الذين يستطيعون القيام بذلك.

إن تحليل السنوات الست التي قضاها تشي في كوبا بعد عام ١٩٥٩ هو في الحقيقة تاريخ الثورة الكوبية. عندما قال جان بول سارتر، أن تشي «اكثر الرجال كمالا في عصره» كان يعني بذلك أن تشي عاش كلماته الخاصة، وتكلّم عن أعماله الخاصة، إلى درجة أصبح فيها تاريخه الشخصي ومجتمعه الخاص يحدثان عن نفس القصة. إن التعقيد في الثورة الكوبية من حيث تفانيها وأصالتها، وتجاربها وسقطاتها، كانت بمثابة مرآة سوداء لتشي غيفارا. فبينما كان تشي يساعد في قولبة الثورة كانت الثورة تعمل على قولبته. ولكن بقيت كتابات تشي وأعماله في ستة مجالات أمورًا أساسية بالنسبة للتجربة الكوبية – الزراعية، والصناعية، والسياسة النقدية، والحوافز الخلقية، والوعي الثوري والشؤون الدولية.

كانت كوبا مجتمعًا زراعيًّا بصورة رئيسية.. لذلك فقد توجَّب على

الثورة الكوبية أن تكون ثورة زراعية. لقد أملى كل من اقتصاد الجزيرة وإحساس المقاتلين في السيرا مايسترا السياسة التي تعطي الأولوية للريف. فمبيعات السكر تشكّل وحدها ثلاثة أرباع دخل البلاد من العملات الأجنبية. لقد تحدد شرط الازدهار الكوبي بمحصول السكر. ومع ذلك فقد كان العمال الذين لا يمتلكون الأرض والذين ينتجون السكر. يعاملون دون معاملة الحيوانات. بينما كان العمال المدنيون ينعمون. نسبيًّا. بالامتيازات. كانت الثورة بحاجة إلى دعم وتأييد الفلاحين. فذكريات حرب الجبال. وتمجيد تشي للفلاحين بوصفهم الطبقة الثورية. هما العاطفة الوحيدة التي تكمن خلف أية ضرورة سياسية. وقد سبق أن بدأ الاصلاح الزراعي في المناطق التي استولى عليها الثوار. وبما أنهم. الآن. يسيطرون على الجزيرة بكاملها فينبغي أن يشمل الاصلاح الجزيرة بأكملها.

لقد كان تشي واضحًا في وصفه للطريقة التي تتفاعل بها حاجات وسياسات الثوار والفلاحين.

«إن الرجال الذين وصلوا إلى هافانا بعد عامين من النضال القاسي في الجبال وفي سهول اورينته (Orienté). في منخفضات كاموجوية وفي جبال وسهول ومدن لاس فيجاس. لم يكونوا من الناحية الايديولوجية من نفس الرجال الذين نزلوا على سواحل لاس كولارادوس. أو الذين شاركوا في المرحلة الأولى من النضال. فقد تحول ارتيابهم بالمزارع إلى محبة واحترام لفضائله. وانقلب جهلهم المطبق بالحياة في الريف. إلى معرفة

بحاجات العمال الذين لا يملكون الأرض. ومع الممارسة ازدادوا معرفة بالاحصائيات وبالجوانب النظرية وجوانب التطبيق. لقد واجه هؤلاء الرجال الامبريالية بشعار الاصلاح الزراعي الذي شرع بتنفيذه في السيرا مايسترا. كانوا يعرفون أن الاصلاح الزراعي سيعطي الأرض لجميع المعدمين، وأنه سيحرمها على مالكيها الذين استولوا عليها ظلماً. لقد تعلّمنا من الفلاحين بأنه لا حدود للجهود وللتضحية التي بوسعنا أن نقدمها جميعاً بينما نقاتل من أجل مصير الشعب».

في هذه الفقرة الهامة كان تشي يشير إلى نقاط أساسية ثلاث: الأولى ان الفلاحين هم الذين شكّلوا الثوار، والثانية أن الاصلاح الزراعي قد بدأ خلال الحرب، والثالثة أن مهاجمة الأمبريالية كانت النهاية المنطقية للاصلاح الزراعي. كان الاصلاح الزراعي وعداً وفى به الثوار، وضرورة داخلية، وسياسة للخارج.

لذا فإن أهم قانون صدر عن الحكومة الثورية الجديدة كان الاصلاح الزراعي الأول في أيار (مايو) ١٩٥٩. فقد أممت جميع المزارع الكبيرة والممتلكات الأساسية. ووضعت سياسة تؤكد على نقل الاقتصاد من اقتصاد يعتمد على محصول واحد، إلى اقتصاد يعتمد على التنوّع في الزراعة. كان الهدف هو تحقيق التشغيل الكامل على مدار السنة. وأُقيمت المزارع التعاونية ومزارع الدولة كنماذج، وأُعطي صغار المزارعين الذين احتفظوا بأراضيهم قروضًا، وعُلّموا الوسائل المحسّنة لفلاحة الأرض. وقد شرح تشي أثر أول إصلاح في المجتمع الكوبي

قائـلاً :

«إن الاصلاح الزراعي الراديكالي، وهو النوع الوحيد الذي يستطيع إعطاء الأرض للمزارع، يصطدم مباشرة مع مصالح الامبريالية وكبار الملاك وأصحاب المواشي والسكّر. إن البورجوازي يخشى الاصطدام مع تلك المصالح، بعكس البروليتاري. لذا فإن عملية الثورة توحد العمال والفلاحين. إن الشغيلة يدعمون المطالب التي ترفع في وجه كبار الملاّك، والفلاح الفقير الذي أعطي السيطرة على الأرض، يدعم السلطة الثورية بإخلاص ويدافع عنها ضد الامبريالية وضد أعداء الثورة».

أظهرت هذه العبارة التطور في أفكار تشي وفي الثورة الكوبية. لقد خلص تشي إلى أن الطبقتين اللتين قدمتا الدعم للثورة هما طبقة الفلاحين وطبقة العمال المدنيين: فالفلاحون ساعدوا بإخلاص شديد في المعارك الأولى. وطبقة العمال المدنيين ساعدت في الدفاع عن الفلاحين في المراحل الأخيرة من الثورة في وجه الأعداء المشتركين: مالكي الأراضي. والمصالح الأجنبية. والبورجوازية. وهي طبقة بدأ الاصلاح الرادبكالي في تحويلها ضد الثورة. قبل هذه المرحلة وصفت الثورة بأنها لا طبقية. لقد لقّب الفلاحون بـ«الطبقة الطليعية» ولكن هذا التعريف لم يستثن «البورجوازية الطيبة» التي سبق أن شاركت في الثورة والتي أفرزت معظم قادة الثوار والمؤيدين من المدنيين. ولم يستثن التعريف أيضًا العمال الصناعيين. بالرغم من مشاركتهم الضئيلة في هزيمة باتيستا، ودعمهم الفاتر خلال الحرب.

أما الشيوعيون الكوبيون فقد اضطربوا بالفعل بالنظر إلى الطبيعة اللاطبقية للثورة الناجحة . وكتب عن ذلك جوان مارتيللو الشيوعي - في كانون الثاني (يناير) عام ١٩٥٩ يقول : «إن الثورة الظافرة لم تكن من عمل حزب واحد أو طبقة واحدة أو مجموعة واحدة . إنما الشعب هو الذي حقّق الانتصار» . ولقد وافق تشي على هذا الرأي . فهو يرى أن الثورة حققت الانتصار «بمساعدة جميع الرجال من جميع الآراء وجميع الديانات والطبقات الاجتماعية» . «إنها ملك الجميع» و «قامت بتوحيد الشعب على نحو رائع» . وكان تشي هو الذي ارتأى التأكيد على دور الفلاحين كطبقة ، وها هو الاصلاح الزراعي يعود إلى مفهوم الصراع الطبقي . فقد قسم المجتمع الكوبي إلى معسكرين : فهناك أصحاب الأراضي يساندهم قسم كبير من الطبقة الوسطى الذين خشوا بدورهم من مصادرة أملاكهم لاحقا وهناك من الناحية الاخرى الفلاحون المدعومون من الشغيلة المدنيين .

لقد حدث ذلك أثناء فترة انعطاف القادة الكوبيين نحو الماركسية — اللينينية ، وأثناء مرحلة إقامة علاقات ودية مع الحزب الشيوعي الكوبي وإبان تفاقم العلاقة مع الولايات المتحدة بعد تأميم المزارع التي يمتلكها أمريكيون شماليون وتدعيم الصداقة الجديدة مع الاتحاد السوفياتي المغتبط ببسط نفوذه على مقربة من شواطىء فلوريدا . وأكثر من ذلك فقد بدأ العمال المدنيون يدركون مصلحتهم أيضًا من الثورة الريفية ، بينما نفرت الطبقة الوسطى بشكل متزايد من خلاف فيدل مع القادة الديمقراطيين

القُدامى ومع الولايات المتحدة التي استمرت مدة طويلة صاحبة النفوذ الأساسي على البورجوازية الكوبية.

كان تشي يلعب دور المحرض والمنظِّر في التحول الذي طرأ على سياسة الحكومة. فقد التقى هذا التحول مع تطور تفكيره الذي بدأ في غواتيمالا ونَمَا في مدينة المكسيك وتكوّن في السيرا مايسترا. لقد دفعته الحرب الثورية ضدّ باتيستا وطغيانه لأن يركز حقده مدة من الزمن على عدو شخصي وتابعيه. إن للطغيان وجهًا مميزًا. ولكن بعد الانتصار بقليل، أدار تشي ظهره لهذه الضغينة. وأصبحت الامبريالية الخارجية عدوًّا حقيقياً كما كانت في غواتيمالا. وبدا أن الحل الوحيد الدائم لمشاكل الدول المتخلّفة في دفاعها الوحيد ضد القوة الاقتصادية للامبريالية يكمن في خلق الصناعات أكثر منه في تطوير الزراعة. مهما كان توزيع الأرض عادلاً بالنسبة للفلاح الفقير.

وسرعان ما بدأ التأكيد في خطب تشي يتحول. فقد قلّ الكلام عن الفلاّح وكثر عن الشغيلة، وقلّ عن الاصلاح الزراعي وكثر عن الصناعات الجديدة. وفي تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٩٥٩ ترأس تشي الدائرة الصناعية لاعادة التنظيم. ثم بعد أن عمل مديرًا للبنك الوطني عين وزيرًا للصناعة في شباط (فبراير) عام ١٩٦١. كانت مهمته الأولى الاشراف على تحويل المنتجات الزراعية والفضلات إلى منتجات صناعية. وكانت مهمته الأخيرة أن يوجد ميادين جديدة تجعل كوبا تحقق اكتفاءها الذاتي. لقد أصبح النمو شغله الشاغل.

«من هو المتخلف؟

المتخلِّف، عبارة عن قزم له رأس ضخم، وصدر منتفخ، إلى حدّ تجعل ساقيه الضعيفتين أو ذراعيه القصيرتين لا يتناسقان مع باقي جسمه... إن بلادنا مشوهة بسبب الامبريالية التي قامت بشكل غير عادي بتطوير الموارد الصناعية أو الزراعية الضرورية لتكامل اقتصادها المعقّد. يحمل «التخلُّف» أو النمو المشوَّه معه تخصُّصاً خطيراً في المواد الخام محتوياً على خطر المجاعة لكل الشعب. نحن «المتخلفين» نقع ضمن أولئك الذين يعتمدون محصولاً واحداً وإنتاجاً واحداً وسوق تصريف واحدة. فهناك منتج واحد غير واثق من بيع إنتاجه لأنه يعتمد على سوق واحدة تفرض مجموعة شروط – هذه هي المعادلة الكبرى للتسلُّط الاقتصادي الامبريالي، والمتحدة مع الدولة الرومانية القديمة والمفيدة دوماً: فَرِّق واحكم».

كان لحقيقة ارتباط الاقتصاد الكوبي بحصّة استيراد السكر التي أقامها الكونغرس في الولايات المتحدة ما يثبت رأي تشي حول الدول المتخلفة.

لم يشعر تشي بأنه كان يبتعد عن الفلاحين في تأكيده الجديد على الشغيلة في المدن. كان الفلاحون سيكافأون بإصلاح الأرض والمكاسب الاجتماعية، التشغيل الكامل، التعليم، المكننة وتنويع المحصول. أما الآن فهناك طبقة واحدة تستطيع تحرير كوبا من تخلّفها وهي طبقة الشغيلة المدنيين. فقد جاء دورهم ليكونوا «الطبقة الطليعية» للثورة. فقد حكم على البورجوازية بالاخفاق في عام ١٩٦١. وكان تشي يرى في العطف

الذي أبدته الطبقة الوسطى أثناء القتال ضد باتيستا عطفاً محدوداً وذلك نتيجة للضغوط الامبريالية على مصالح البورجوازية الكوبية.

كان لا بدّ من إعلان حرب جديدة على الطبقة الوسطى. وهنا كشف تشي النقاب عن مدى أهمية مثل «الفاتحين» بالنسبة للثوار الاثني عشر الذين بقوا على قيد الحياة ليغزوا الجزيرة بأكملها. تماماً كما بقي بيزارو حيًّا مع الرجال الثلاثة عشر على جزيرة جالو قبل غزو البيرو بأكملها. لقد رسم بيزارو خطًّا على الرمال سار عليه حفنة من الرجال فقط. بينما تقهقرت باقي القوة تجر ذيل اليأس والاخفاق. ولكن مجموعة بيزارو الصغيرة صمدت لتربح بيرو. تماماً كما صمدت مجموعة فيدل لتفوز بكوبا. والآن استحضر مثل «الفاتحين» العظماء لانكاس من قبل تشي ليوضح هجومه على أعداء الثورة الجدد. «لقد رسمت كوبا الخط على الرمال مرة أخرى ونحن نرى مرة أخرى مأزق بيزارو.. فهناك من جهة المحبون للشعب، وهناك من جهة اخرى الكارهون للشعب. وبين اولئك وهؤلاء. يبرز الخط الذي يقسم القوتين الاجتماعيتين الكبيرتين. البورجوازية والطبقة العاملة. اللتين تحددان بوضوح متزايد مواقعهما المتتالية أثناء تقدم عملية الثورة الكوبية».

وكما هو الأمر دوماً، حدَّد تشي تاريخ انشغاله بالصناعات الجديدة منذ تجاربه في السيرا مايسترا، فقد قال: «**لقد تذكر فيدل كيف ألفنا مرة مصنع أحذية صغيراً. ومنذ ذلك الحين أصبحنا منتجين صناعيين**». أصبحت إقامة الصناعات الآن جزءاً من نضال الثوار ومن

الصراع الشامل لتحرير العالم الثالث. «**كان أثر كوبا العظيم يظهر في قوتها السياسية، كتجسيد لجميع الدول المتخلّفة التي تناضل من أجل حريتها. لقد قامت علاقة متبادلة بين عنصري الثورة، إن هدف تلك الدول التي تقاتل من أجل حريتها هو أن تنتج الصناعات من أجل نيل تلك الحرية**». لذا كان النضال الثوري بالنسبة لبلدان العالم المدخل الوحيد للتقدم الصناعي ضد التسلُّط الامبريالي الاقتصادي.

ومن الطبيعي أن يتطلَّب التقدم الصناعي صفات عديدة يتحلى بها العامل كتلك الصفات الضرورية التي يتحلى بها الثائر. فلا بدّ للعمال المدنيين من أن يتعلّموا روح التفاني والاخلاص المشابهة لتلك التي امتلكها المقاتل الريفي. لقد قاتل الفلاحون وربحوا المرحلة الاولى من الثورة، لذا فإنهم كانوا يتلقون مكافأتهم نصيبًا من الأرض يستغلونها استغلالاً صحيحًا. والآن على العمال أن يقاتلوا في المرحلة الثانية من الثورة التي تتطلّب خلق قاعدة صناعية في الداخل. وفي الوقت الذي يجري فيه تنفيذ ذلك، لا بدّ للعمال من أن يضحوا بالعديد من المكاسب الاقتصادية التي نالوها مقدمًا وبالتحديد الأجور التي رفعت مستوى معيشتهم درجات فوق مستوى معيشة العامل الريفي. يتوجب على العمال الآن أن يضحّوا بالمنافع الشخصية إكراماً للثورة، فلا ينظرون الى الدولة الجديدة على انها رئيس آخر لكنه بخيل هذه المرة، فعلى العمال عندما يكون مستواهم المعيشي مقبلاً على الانخفاض أن يثقوا بالمستقبل الزاهر لهم ولأطفالهم مع نجاح الثورة. ومن الأفضل أن يفعلوا ذلك فرحين مستبشرين كي تكون ضحياتهم جديرة بالاعتبار.

لقد رأى نقّاد تشي أن تحوله – لا شك – هو تحول كلي ، فعندما احتاج إلى دعم الفلاحين دعاهم إلى التضحية الذاتية ودعم الاصلاح الزراعي ، وأما عندما احتاج إلى العمال المدنيين أكثر مما احتاج الفلاحين دعاهم إلى التضحية الذاتية باسم النمو الصناعي . وقد ربط حقد ملاّك الأراضي بين الثوار والفلاحين خلال المرحلة الأولى ، وخلال المرحلة الثانية هوجمت البورجوازية لاسترضاء الشغيلة . وفي كلتا الحالتين بدا أن النظرية والعقيدة استعملتا لتبرير السياسة الواقعية ، مثال ذلك ما جرى من مغازلة الحزب الشيوعي المحلي عندما دعت الحاجة إلى الاستفادة من قوته في النقابات كي يحول بين العمال المدنيين وبين الاضراب . لقد ظهر تشي وكأنه لا يفعل شيئاً أكثر من إضافة بريق من المفاهيم إلى استراتيجية جدبرة بأي سياسي .

ومع ذلك فإن التجربة والتحليل ، التطبيق والخطة ، متصلان على نحو لا انفصام لـه . لقد جارى نجاح تشي السياسي نجاح كوبا السياسي خلال السنوات الأولى للحكومة الثورية ، وكان التفاعل بين عقيدة تشي والسياسة العامة ، بمثابة زواج في الأهداف تقريباً . وهنا يمكن رسم خريطة توضح التغير في آراء تشي الشخصية وفي اهداف الثورة . ولربما أملت الحوادث جزءاً كبيرًا من هذا التحول . ولكن عقيدة تشي لعبت دورها . إن نجاح كل ثورة عظيمة ، يتطلّب ظهور سياسة وعقيدة منسجمتين تمارسان بنجاح .

تطوُّر مسيرة الثورة الكوبية

	الوضع في المرحلة الاولى	الوضع فيما بعد
مكان الصراع	السيرا مايسترا والمناطق الريفية	كوبا بأكملها مع التركيز على المدن
القادة	الثوار كقوة عسكرية	الثوار كأسياد الموقف السياسي
الحلفاء	الفلاحون والمصلحون المدنيون من الطبقة الوسطى	الشيوعيون . والعمال المدنيون والفلاحون
الأعداء	باتيستا والجيش النظامي . المصالح الكوبية والأميركية الضخمة .	الولايات المتحدة وقوة المنفيين الكوبيين المتنامية .
الطبقة الطليعية	الفلاحون	البروليتاريون المدنيون
الأولويات	إعادة توزيع الأرض . وتنويع الزراعة	تأميم الصناعة وتطوير التكنولوجيا . والافادة الكاملة من الموارد .
التجارة والدبلوماسية	امبركا اللاتينية . والولايات المتحدة وأوروبا الغربية	روسيا السوفياتية . وأوروبا الشرقية
العقيدة	« الديمقراطية الانسانية على أساس الحرية مع الخبز للجميع » فيدل كاسترو. ١٩٥٩	« أنا ماركسي لينيني وسأبقى كذلك حتى يوم مماتي » فيدل كاسترو. ١٩٦١

الفصل الخامس

تشي في البنك المركزي

احتقر تشي المال نظريًّا وتطبيقيًّا. ففي حياته الشخصية كان على الدوام يوبخ الجشعين، وبدا أنه كان يشبع نفسه ويرضيها عندما يستغني عن النقود لا عندما ينفقها كما يحدث لكثير من الناس. وقاده زهده الشخصي إلى الشيوعية البدائية حيث تكون النقود شرًّا لا بدّ منه. كان يشمئز من المال كما يشمئز راهب القرون الوسطى من الربا. وكان منذ شبابه يحتقر اولئك الذين ينفقون كل وقتهم في تجميع الثروات. ويذكر ذلك بزهو وافتخار في رسالته الوداعية لفيدل «**لم أترك أي ممتلكات مادية لزوجتي وأطفالي، ولست بنادم على ذلك**». وقد يبدو هذا الاعتراف مذلاً بنظر معظم الرجال، أما بالنسبة لتشي فقد كان موضع فخر. كم هو عدد السياسيين في أمريكا اللاتينية الذين بوسعهم أن يقولوا نفس الكلام عند ترك مناصبهم؟ وكم عدد الذين عملوا منهم في الحكومة يتمتعون بنفس القدر من الاستقامة ولا ينتابهم القلق بالنسبة لمستقبل زوجة تركت مع أربعة أطفال صغار دون مال؟

لم يكن تشي يعارض الطمع عند الأفراد بل أيضًا عند المؤسسات والأمم . فقد كان يكره مبدأ القروض الأجنبية . ورأى بأن هذه القروض يجب أن تكون هبات . وهذه المشاعر لم تدفعه لأن يكون العدو الذي يكن الاحتقار للرأسمالية والنشاط الحر فحسب ، بل أيضًا جعلته يعارض ممارسات عديدة للكتلة السوفياتية ، ومنها بالتحديد قروض روسيا بالفائدة لكوبا . ومما كان يثير غضبه أن يرى العمال في معظم المجتمعات ، يبيعون عملهم ومهارتهم لمن يدفع أكثر . ولم يكن يقبل أبدًا أن يكون الطمع هو الذي يحفز البشر والأمم ولذا فقد عارض الحوافز المادية لزيادة الانتاج والحلول المؤلمة التي يقدمها العرض والطلب . كان يفكر بسلّم الأجر الواحد حيث يحصل كل شخص على الأجر حسب حاجته ، إلى أن يلغى النقد جملة ، إن الطلب العام على مادة معينة أو مهارة معينة يجب أن لا يدفع عليها أكثر من الطلب على مادة اخرى أقل شعبية ولكن مطلوبة أكثر من الناحية الاجتماعية .

ومن المفارقات العجيبة أن يقع الاختيار على هذا العدو الرئيسي للنقد ليكون مديرًا للبنك الوطني لكوبا قبل أن يصبح وزيرًا للصناعة . ومع ذلك فهناك منطق عجيب وراء اختيار تشي . فالمصلح الذي يريد أن يضع حدًّا للدعارة يقتضي عليه الذهاب إلى الماخور لا الذهاب إلى بيت امرأة فاضلة . وكذلك شأن من أراد محاربة النظام النقدي القديم ، فينبغي عليه أن يصبح مديرًا للبنك الوطني قبل خوضه المعركة . مع ذلك فهناك صلة تربط بين اهتمام تشي الخاص بالصناعة في كوبا والقرار الذي

اتخذه. كان عليه أن يحصل على القروض والاعتمادات والمعونات من أجل تمويل مشاريعه للعمليات والصناعات الجديدة. فكان لزامًا عليه أن يتقنع بقناع الرأسمالي الشرير، كي يبقى عجلات الصناعة دائرة. لقد شارك ماكهيث تأمُّله حين تساءل: وما وجه المقارنة بين نهب مصرف ما وإدارة هذا المصرف؟.

وقبل أن يتولى تشي مهامّه الجديدة، ألَمَّ إلمام الرجل الذكي بالاقتصاد، وبهذا تعلم بسرعة نظرية البنوك، وكتب العديد من المقالات حول التمويل، مقتبسًا من المصادر الماركسية والهيجلية، كي يدحض الشيوعيين المترمتين والاقتصاديين الرأسماليين الذين دافعوا أو عملوا مع النظام النقدي العالمي. لقد أملت أخلاق تشي بصورة أساسية نظرياته وبقي تعلُّمه شيئًا مظهريًّا. وعلى الرغم من أنه تعلَّم أساليب المصارف، فإنه أراد أن يستخدم التمويل سلاحًا لخدمة ايديولوجيته فحسب. وكي تثبت العقيدة لا بدّ أن تنجح الأساليب. أما أسباب اختيار وسيلة دون اخرى فلم تكن أسبابًا اقتصادية. وإنما خلقية.

إن رؤية تشي للانسان الاشتراكي لم تكن تتعارض مع أفكاره عن الثورة والحرب والاقتصاد. كان يناضل من أجل خلق ذلك الانسان الجديد والقضاء على استغلال الانسان للانسان. كان على كل شيء. بما فيه الاقتصاد. أن يشارك في ميلاد تلك المثل. وهنا تكمن أصالة تشي وآثاره.

آمن تشي بأن الحكومة الاشتراكية الثورية ورثت طرق تفكير

عديدة وعظيمة . مغايرة لهدف الثورة . ولا بدّ من إزالة هذه الطرق في الحال . وإلاّ فإنها ستفسد روحي الرفاقية والراديكالية الجديدتين . فلم يكن كافيًا تحويل النظام القديم إلى دولة يسعد فيها الانسان وتؤمَّم فيها الصناعات وتوزع الثروة بعدالة أكثر . فالماركسية والتخطيط المركزي هما أكثر من مجرد أساليب لادارة الدولة بشكل أكثر فعالية وعدالة . فما لم يستطع النظام الجديد تغيير العلاقة بين الناس أنفسهم . وبينهم وبين المجتمع ، فلا تغني تضحيات الثورة ومعاناتها بما في ذلك الموت والتشويه (من القتال) والخسارة . وأكثر من ذلك . فإن ثورة اخرى ستنشب إذا كان همّ النظام الجديد تحسين الوسائل القديمة السيئة ليس إلاّ .

ذلك أنه إذا ما اريد للاشتراكية أن تعني أكثر من رفع مستوى العيش للأغلبية المسحوقة فلا بد من تحسين نوعية الحياة . لا بد من تقديم معنى للعيش إلى جانب التقدم المادي . وفوق كل شيء لا بد لهذا المعنى أن ينطبق على عمل الإنسان . فعلى الاشتراكية أن تضمن «مستقبلاً يكون فيه العمل أكبر شرف يتطلع اليه المرء بحيث يصبح واجباً اجتماعياً وسعادة إنسانية حقة وفعلاً مطلقاً للإبداع» . فبينما كان جهد الانسان مجرد سلعة تباع وتشترى فإنه – الانسان – لم يكن بوسعه ان ينظر إلى عمله بعين الرضا والافتخار . لقد كان «واجباً كريها وشرا لا بد منه» وذلك كان بلاء الرأسمالية الصحيح ، فقد حرمت الإنسان فخره بعمله من حيث كان ينبغي أن يكون مصدر رضاه الأكبر ؛ لقد لطخت الرأسمالية شرف العامل ، عندما حولته من شخص يزهو بعمله . الى شخص يرى ضالته

في ما يربحه من مال لقاء انتاجه . وحولته إلى جشع يسخر من ذاته . حيث أصبح يعمل من أجل المادة . لا من اجل العمل نفسه . ان تغيير موقف العامل من عمله وبالتالي تجاه مرابحه كفيل بأن يحوّل الاقتصاد والمجتمع والإنسان نحو الاشتراكية الحقة .

شعر تشي بأنه لا بد من أن تعالج هذه المشكلة خلال فترة الحماس الأولى من المدّ الثوري . واصطدم هنا بالشيوعيين من أنصار المدرسة القديمة الذين أرادوا إقامة اقتصاد اشتراكي أولاً ، حتى إذا ما نجح ظهرت عندئذ عقلية اشتراكية حقة بين الشغيلة . غير أن تشي لم يوافق على هذا الكلام . لأنه بعد خمسين عاماً من الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي ما زال العديد من الحوافز الرأسمالية وطرق التفكير باقية في صفوف العمال والمديرين . إذ ينبغي أن يسبق التثقيف العقائدي ما ينتظره العامل من مكافآت لقاء الانتاج . «نحن نؤكد أن إنماء الضمير . سيطور الإنتاج في وقت قصير نسبياً . إلى درجة يضعف فيها أثر الحافز المادي» إن انماء الضمير كان يعني دفــع العمال لأن يعملوا بكل طاقتهم غير مدفوعين بجشعهم أو طموحهم أو خوفهم إنما بمثاليتهم وإيمانهم بقادتهم وتطلعهم لمستقبل أفضل لأفراد في مجتمعهم ولأنفسهم . فإذا ما رعت الدولة كل مطالبهم كان بوسع العمال أن يعملوا لمصلحة الجميع دون ان يكون المال هدفهم .

وكانت نظرية تشي عن القيمة والتي دعمها فيدل الأساس لكل المناظرة الاقتصادية . فالقيمة لا تحدد حسب العرض والطلب . وإنما

حسب قيمة المنتج أو الخدمة من الناحية الخلقية والاجتماعية . وليس حسب قيمتها في السوق . لذا كانت قيمة العمل من الناحية الإنسانية أكثر أهمية من قيمته بتعابير الفعالية الاقتصادية . ينبغي على بنك الدولة أن يقرر الميزانية للمشاريع التجارية طبقاً لقيمتها الاجتماعية . لا أن يمنح القروض لاحتكارات الدولة التي يديرها مديرون لاهم لهم سوى الانتاجية ، كما هي الحال في روسيا . لقد فكر تشي بالقيمة بمعناها الخلقي القديم . وليس بتحديدها الاقتصادي الضيق . فالرجل الاقتصادي هو المسخ الذي صنعه النظام الرأسمالي ، وأما الإنسان فهو الكائن الاجتماعي والسياسي الذي حدده الفلاسفة اليونانيون القدامى . فينبغي على النظام الاقتصادي أن يخدم قيم الإنسان عن طريق خدمة قيم المجتمع الذي ينتمي إليه الإنسان ، وعلى هذا فالمال لا يستحق أن يشغل حيزاً في حياة الإنسان .

لقد سيطرت هذه النظرية الطوباوية عن القيمة على قرار تشي كمدير للبنك الوطني . فقد اعتقد أنه ليس من العدل تشجيع المنافسة بين مشروع تجاري للدولة ينتج الجعة «البيرة» ، وبين آخر ينتج الكتب المدرسية ، لمجرد أن بيع الجعة أوسع بكثير من بيع الكتب المدرسية . إن توسيع صناعة الجعة بسبب كثرة ربحها أمر غير مرغوب فيه من الناحية الاجتماعية . إذا كان يعني تخصيص مال أقل لانتاج الكتب المدرسية . وكان من واجب البنك الوطني أن يقدر القيمة النسبية للمادتين بالنسبة للمجتمع الكوبي ، وأن يخصص ميزانية لكل من المشروعين محددة بالقيمة الاجتماعية للمادة المنتجة ، عوضاً عن الربح الذي تجنيه الدولة

الكوبية . وكان يجب أن تكون القروض التجارية بلا فائدة . لتفادي أي ضغط يمارس على المشروع . مما يمكن أن يفسد هدفه الاجتماعي في نشدانه للربح . وبنفس الطريقة يجب أن لا يمنح العمال حصة من أرباح المشروع . وإلا فستظهر طبقة عمال من ذوي الامتيازات . وهذه سوف تحصل على دخل يفوق دخل العمال الآخرين الذين أفادوا المجتمع بأكمله بالعمل في مشاريع غير مربحة . إن مكافأة العمل تكون في العمل لصالح الجميع . يجب على البنك الوطني أن يحدّ من المنافسة والحوافز المفرطة . الأخوين التوأمين للجشع . ويجب أن يعلّم قراره القيمة الحقيقية لخط . الرفاقية في خدمة الثورة .

دفعت هذه المعتقدات تشي إلى القيام باختيارات صعبة بشأن مسألة التخطيط المركزي . ومن البديهي أن يكون التخطيط المحلي قد قاد إلى شعور أكبر بالمشاركة . ولكنه قاد أيضاً إلى المنافسة بين المناطق المحلية . أخذ التخطيط المركزي بعين الاعتبار مصلحة الجزيرة بأكملها . وساعد أيضاً في تقديم تقنية وتصنيع أفضل . ووصف تشي المنافسة الرأسمالية في إحدى خطبه التي خصصها للدفاع عن التوجيه المركزي بأنها «صراع بين الحيوانات» ووصف المنافسة الاشتراكية المحلية التي تهدف إلى تحقيق أقصى الأرباح بأنها «صراع بين حيوانات سجينة» .

كان يسعى لإنجاز حاجات الرجال الروحية . أما حاجاتهم الجسدية فقد كانت عرضية . ولقد أراد تشي . حتى في قضية اجتماعية كالعمل

الطوعي . أكثر من مجرد العمل نفسه. «ان العمل الطوعي ليس عاملاً لزيادة الانتاج وحسب إنه منبع الثقافة الاشتراكية للجماهير».

لذا أراد تشي ومن هم على مذهبه من الاقتصاديين تبني التخطيط المركزي . بحيث تذهب الأرباح للدولة من أجل توزيعها على الاقتصاد وعلى المجتمع بكامله . وينبغي أن تدار الزراعة بنفس الطريقة التي تدار بها الصناعة . وعلى مزارع الدولة الكبيرة أن تستمر في توظيف جميع العمال ودفع رواتبهم . وأن تكون الأرباح للمنفعة العامة . كما ينبغي أن توجه الصناعة كل العناية بحيث تصبح الهدف الذي من خلاله تتحرر كوبا من السوق العالمية حيث تبتاع الاقطار المتطورة المواد الخام بأسعار منخفضة ـ تبيع البضائع المصنَّعة بأسعار عالية. وكان التصنيع . أيضاً . الدواء د لمعالجة تدني مستوى التشغيل الذي ابتليت به جميع الدول ة . وكذلك فقد كان الاصلاح الزراعي ضرورة أيضاً . كي ينقل . المتخلف من الاعتماد على اقتصاد المحصول الواحد . إلى الاكتفاء بذاتي ، حتى ولو كان ذلك يعني تخفيض المحصول الرئيسي الذي يوفر رأس المال الأجنبي . فالاستقلال الاقتصادي أساس الاستقلال السياسي .

إن الحافز الكامن وراء هذا البرنامج هو الوعي الثوري . «إن بناء الاشتراكية لا يتم بالعمل وحده ، إنه العمل والوعي ، تطوير السلع المادية من خلال صنع الوعي وتطويره». ولكن تطوير الوعي الثوري ينبغي أن يحظى بأهمية تفوق تطوير الإنتاج . فمثلاً

بالرغم من أن المنافسة كانت شيئاً سيئاً عندما شجعت التنافس والفروق المادية سواء في البلدان الرأسمالية أو الاشتراكية فإنها كانت مفيدة عندما شجعت الرفاق المخلصين على العمل بجد. وكانت المنافسة سلاحا ذا حدين. «المنافسة لا تستطيع أن تكون مثل لعبة الكرة. حيث يقذف الخاسر الحكم بالبرتقال. فالمنافسة ينبغي أن تكون ودية. لماذا؟ كي يضاعف كل فرد الإنتاج. إنها سلاح لزيادة الانتاج. وليس هذا فقط. بل إنها أداة لتعميق وعي الجماهير. إنهما - المنافسة والوعي -- يتمم أحدهما الآخر». وما ينطبق على المنافسة ينطبق على العمل الطوعي الذي كان شكلاً من التربية. بحيث لم يعد العمل هاجساً كما هو في العالم الرأسمالي. بل أصبح واجباً اجتماعياً جميلا. إن صنع الانسان الجديد كان هدف الأعمال الاجتماعية الأسمى.

ان الحقيقة المذهلة حول كوبا الحديثة هو أن هدف تشي هذا قد وضع موضع التطبيق. ومهما قال أعداء الثورة الكوبية فإن العمل الطوعي ما يزال ينفذ باصالة من قبل المتطوعين حتى لو لم تكن أسباب قيامهم بالعمل هي نفس أسباب تشي. فقد يتطوعون أسوة بغيرهم. أو لأنهم يخشون توبيخ رفاقهم لهم. أو لأنه لا يوجد عمل بديل في كوبا يقومون به في أوقات فراغهم. ومع ذلك فان الحماسة والوعي الثوري تفعلان فعلهما. فعندما يغادر المواطنون هافانا طوعاً. من أجل قضاء فترة في قطع قصب السكر خلال موسم السكر. ينتابهم شعور بأنهم يؤدون دورهم المتواضع في الثورة وقد يعملون ببطء ولا يعطي عملهم النتيجة المطلوبة. ولكنهم

يعملون لمجتمعهم ، فيبرهنون على أن تشي كان على حق. وبالإمكان أعطاء أفراد الشعب العادي ما يكفي من الوعي الثوري ليعطيهم بدوره معنى لعملهم. فعندما يعمل العامل و «لا يكتفي بتحصيل معيشته ، بل يبني شيئاً يراه ويشعر كأنه ملكه» فإنه يكون بذلك قد خطا خطوة نحو مثل تشي.

مع ذلك ، فإن تشي لم يكن نظرياً متزمتا ولا متصلبا كل التصلب في تفكيره رغم كل تشديده على التخطيط المركزي. لم يكن يريد بناء دولة قوية ، وإنما بناء شعب اشتراكي سعيد. والحق أنه شجب افكار أولئك المتزمتين الجامدين «إن مهمة خلق مجتمع اشتراكي في كوبا يجب ان تتم بعيدا عن التفكير الآلي كما يبتعد المرء عن الطاعون ، فالتفكير الآلي لا يقود إلا للاساليب المقولبة». أما الماركسية ، فقد كانت ديالكتيكية وهي عملية تغيير. إن الأفكار المتزمتة داخل الماركسية مرض لأنها رفض للتجربة. ويرى تشي ، أن يبقى الثوري كائناً بشرياً. فلقد كانت عبارة «ان تكون انساناً» لا تعني لتشي أن تكون ضعيفاً أو ان تتصرف بشكل دون تصرف باقي البشر. إنها تعني بذل غاية الجهد الأحسن لا بذل الجهد الأقل. وهي تعني فوق كل شيء حث الانسان على تطوير وعيه بحيث «يتألم لاغتيال أي انسان في أي بقعة من العالم ، وان يفرح بزوال عائق آخر من طريق الحرية في أي بقعة من العالم». والواقع أن تشي يرى ان الكلمتين «إنساني» و «ثوري» هما توأمان وذاك لعمري تفكير رجل ثوري.

وما من شك في ان تفكير تشي الاقتصادي ضم عنصرا من التناقض. فهو متصل بالفوضوية الطوباويةوالشيوعية البدائية بخيط يكمن خلف كل تأكيداته على التوجيه المركزي. ففي أحد الاجتماعات التي

ـمت حشوداً من العمال بدأ تشي خطابه بترديد كلام لشاعر كان يندب
ـهل الناس لأن أحداً لم يستطع «أن يفهم إيقاع الشمس» ولا «أن
ـصد سنبلة قمح بمحبة وحنان» . ثم راح يشرح كيف أن الكوبيين تخطوا
.ا الوضع وخلقوا وضعا جديداً عبر رغبتهم «في الرجوع إلى الطبيعة وتغيير
ام العمل اليومي الممل إلى نشاط هادف» . وإذا رجع الشاعر إلى كوبا
ه سيرى «كيف تخلص المرء من جميع مراحل الحرمان الرأسمالي ، بعد
كان يسخر كالحيوان لمصلحة المستغل ، وسلك طريق عودته إلى
'نسانية مرة أخرى ليضفي على العمل في كوبا اليوم معنى جديداً إذ
رسه بسعادة ومحبة » . ويؤكد تشي بأنه كان هناك «محبة وحنان» في عمل
ـع القصب بالذات ، وان عبودية الانسان لا تكمن في حاجته للعمل
ـما في حرمانه امتلاك وسائل الانتاج . فقد استعاد أيضاً حسه القديم
ـسعادة في العمل وشعر بأهمية نفسه داخل الآلية الاجتماعية .

أصبح سعيداً وهو يشعر بأنه مثل تضاريس العجلة الدائرة لها سماتها
ـنافعها الخاصة . انها تضاريس ضرورية لا غني عنها في عمليات
ـنتاج ، لكن لإنسان كائن مفكر له دافع خاص ، انه يحاول بوعي أن
فع بمثابرة وإحكام إحدى مقدمات بناء الاشتراكية ، نعني إيجاد كمية
فية من السلع الاستهلاكية للشعب بأكمله » .

ومن المفارقات العجيبة أن يكون تشي قد كشف في حديثه هذا ا
موضع قريب من الأخلاق البيوريتانية الأصيلة ، والتي كانت الـ
تصاد أميركا الشمالية . لقد أكد البيوريتانيون باستمرار بأن ا

واجب اجتماعي ويجب أن يؤدي بمرح .

إن قوانين مجتمع تشي لم تكن قوانين مجتمع القرن السابع عشر ، ولكن أساليب إقناع الناس على العمل بجد ونجاح في ميادين حقيرة لم تكن مختلفة .

وقد لخص تشي فلسفته الاقتصادية في مقاله الشهير عن «الانسان والاشتراكية في كوبا» .أنكر فيه أن تكون الدولة الكوبية قد جاءت للقضاء على الفرد . وإنما جاءت لخلق فرد جديد بدت ملامحه الظاهرة أثناء أيام القتال البطولية في السيرا مايسترا . وفي الأيام التي ضحى فيها الشعب بأكمله ليخدم الأمة أثناء أزمة الصواريخ ، وخلال هاريكين فلورا (Hurricane Flora). إن المشكلة كانت في جعل شعور المساعدة . الذي لم يظهر إلى الوجود إلا أيام الازمة او الكارثة فقط ، شعوراً دائماً . وقد اعتمد ذلك الشعور على التواصل التام بين الشعب وقادته .. «تأتي المبادرات بشكل عام من فيدل أو القيادة العليا للثورة ، ثم توضح للشعب الذي يمارسها وكأنها من صنعه . وفي بعض الأحيان يتبنى الحزب التجارب المحلية بمشاركة الحكومة ثم يعممها» . ولكن هذه الاتصالات لم تكن على مستوى كاف من الإتقان . الأمر الذي يفسر بعض الفشل في الفهم ، ولكنها قابلة للتحسن . لا شك ان ظهور مثل هذا النظام في الحكومة قصد به إخضاع الفرد . ولكن تشي لا يرى في الفردية الغربية أكثر من حكم الرأسمالية . فهذا روكفلر إنه خير مثال على الفردية الغربية . «إنه شعب من الذئاب ، فذلك الذي يصل إلى مثل قمة هذا النجاح إنما

يفعل ذلك على حساب الآخرين». إن الانسان في ظل الاشتراكية لم يكن مخلوقا جشعاً. بل مادة غير مكتملة وعلى المجتمع الاشتراكي أن يستأصل من الفرد العيوب المكتسبة. وعلى الفرد أن يعيد تربية نفسه. يجب أن يسقط من حسابه الفكرتين التوأمين للرأسمالية القائلتين بأن الفرد منعزل. وأن العلاقات محكومة بقانون العرض والطلب. هناك العديد من البلدان المتخلفة التي حررت نفسها من قبضة الأمبريالية لكن قدرها بقي رهناً بيد الأمبرياليين لأنها فشلت في تحرير نفسها من المنطلقات الرأسمالية. فإذا ما أريد بناء وعي ثوري كان لا بد من خلق إنسان جديد يكون حجر الزاوية في بناء الأمة الجديدة.

لذا فالمجتمع الثوري الجديد لا بد أن يكون مدرسة ضخمة إذ قد تلجأ الرأسمالية. برغم كل شيء. إلى القوة. هكذا عودت الرأسمالية شعبها وثقفته وفق نظامها الخاص. وعلى هذا فإن واجب الحكومة الكوبية تعليم شعبها أفكارها الخاصة وبشكل مكثف حتى لا يقع أفراد الشعب في أخطاء الرأسمالية. عندئذ فقط. يبدأ ظهور إنسان جديد. إن صورته لم تكتمل بعد. ولن تكتمل أبدا لأنه يتقدم بشكل موازٍ لتطور الأشكال الاقتصادية الجديدة. لم يعد يتقدم وحده نحو رغبات شخصية مبهمة. فقد سار مع الجماهير خلف قادة حزبه نحو أهداف المجتمع الجديد. لقد قام بدعم المؤسسات وتقديم التضحيات الثورية. بيد ان ذلك كان مرحلة عابرة نحو العالم الجديد. كان هدف الثورة المطلق إعداد رجال متحررين من عقدة الغربة عن مجتمعهم. التي كانوا يسمونها خطأً نزعة فردية.

«فعلى الرغم من تعيير الانسان باشتراكيته فانه يبقى أكثر كمالاً من غيره».

لذا فقد تجاهل تشي تساؤل المتسائلين: وكيف يستطيع الفرد معارضة مجتمعه. لأنه لم يعتبر مثل هذا السؤال منطقياً. ويتفق تشي مع أفلاطون في قوله بأن قيام أي إنسان بتحقيق ذاته إنما يكون ضمن مجتمعه الشيوعي. لذا فإنّ صوت كل رجل يجب أن يسمع ضمن الجهاز الاجتماعي (Social apparatus) وليس ضده. كما يجب أن تلغى كل اسباب الخلاف ودوافعه التي قلبت الرفاق إلى متنافسين. يتنافسون في العمل من أجل المال. بينما المفروض أن يكون العمل واجباً اجتماعياً «فالآلة في آخر الأمر هي الخط الأمامي حيث يؤدى الواجب». فإذا ما حرر الانسان من العمل كي يوفر الطعام والكساء والسكن لعائلته. فبوسعه أن يجد نفسه قد أنجز خدمة للجماعة بأكملها. ويوافق تشي على أن العمل في دولة اشتراكية يجب أن يكون اجباريا إلى حد ما ولكن ينبغي أن يكون كما أسماه فيدل «اجباراً خلقياً» ثم لا يلبث هذا الإكراه أن يصبح طوعيا بعد ان ينمو الضمير الاجتماعي نموا لائقا وعاما. واعتقد تشي بأن الفن كشف الفارق بين المجتمع الرأسمالي والمجتمع الاشتراكي. ففي الرأسمالية هاجم الفنان الدولة «فالفراغ والتسلية المبتذلة هما صماما أمان للقلق الانساني». مع ذلك فإن الثورة الحقة تحتوي التجارب الفنية داخل ذاتها. ومن المسلم به بأنه لم يوجد «فنانون ذوو سطلة عظيمة ممن كان لديهم إلى جانب ذلك. سلطة ثورية عظيمة». بيد أن الثورة كانت ما تزال فتية والتجربة ستشملهم وتشمل الانسان الاشتراكي الجديد. ولقد

احتقـــر الواقعية الاجتماعية في القرن التاسع عشر التي احتفظ بها كفن رسمي لروسيا والصين فقد كانت رجعية . تماماً كما كان الفن الرأسمالي المنهار في القرن العشرين رد فعل في ذاته لتلك الواقعية البائدة . إلا أن التجارب الجريئة والمتواصلة ستجد فناً جديداً يناسب إنسان القرن العشرين الجديد . إن ذلك الإنسان الجديد سوف يجد في قادة الثورة الكوبية ، وبالتحديد في تضحياتهم . ما يدفعه ويلهمه . فقد كان هؤلاء موجهين بفعل المشاعر الأصيلة للمحبة . ومع ذلك فقد تخلوا عن حياتهم العائلية من أجل القضية . «لا حياة خارج الثورة» . يجب أن يسير الشعب مثل قادته نحو الأممية البروليتارية الحقة ، وأن تتملك أفراده رغبة شديدة في مساعدة رفاقهم المستغلين في جميع انحاء العالم . ويجب على القادة أن يسيروا بالشعب في اتجاه هذه الغاية .

وأنهى تشي أعظم بياناته بسلسلة من المبادىء الأساسية حث فيها الشعب الكوبي على التمسك بالقضية والإيمان بها .

«نحن الاشتراكيين أكثر حرية . لأننا أكثر تحققاً ذاتياً ونحن أكثر تحققاً ذاتياً لأننا أكثر حرية ...

إن تضحياتنا تضحيات واعية . إنها دفعة من أجل الحرية التي نحن نبنيها . وسوف نصنع إنسان القرن الحادي والعشرين : نصنعه نحن بأنفسنا» .

هذه هي على وجه التقريب آمال تشي ونواياه المبكرة. لقد خابت جميعاً تقريباً. وحتى في كوبا لم تكن الأحلام بمتناول اليد. وقد حلل تشي في مقالة له نشرت في أكتوبر عام ١٩٦٤ الأخطاء التي ارتكبتها الحكومة الكوبية في حقلي الصناعة والزراعة. وكان حكمه على أخطاء بلاده وعلى أخطائه الشخصية. وهو الخبير في النقد الذاتي. قاسياً وشفافاً بحيث لا يستطيع، حتى الأعداء أن يقولوا عنه أكثر ما قاله هو عن نفسه. وفيه هاجم نظام المحصول الواحد بوصفه لعنة تصيب الدولة النامية، وأيّد سياسة التنوع في المحصول بالنسبة للزراعة كوسيلة نحو التشغيل الريفي الكامل، والكفاية الذاتية القومية، كان رأيه صحيحاً من الوجهة النظرية، أما التطبيق الحقيقي للسياسة فقد كان مآله الفشل. فقد جرت محاولة بالغت في تنويع المحصول حالاً، فنتج عن ذلك انخفاض عام في الانتاج الزراعي، ولذا كان على كوبا أن تعود إلى دورها الأصيل كمنتجة رئيسية للسكر، الحقيقية الاقتصادية الأساسية لوجودها. وقد اعترف تشي الآن بأن الولع الذي ربط بين السكر واعتماد كوبا على الامبريالية والبؤس في المناطق الريفية، لم يكن سوى ولع ليس إلاّ. وفي الحقيقة كان على الكوبيين أن ينتجوا السكر ويحصلوا من ورائه على مال أكثر، فالسكر لم يكن شيطاناً وإنما الميزان التجاري هو الشيطان.

وحدثت اخطاء مماثلة في صناعة كوبا الحالية والمندفعة. واعترف تشي بالفشل في فهم التكنولوجيا الدقيقة. والاقتصاد اللازم لإقامة صناعات جديدة. ومرة أخرى دفعت البطالة والرغبة في تحقيق الكفاية

الذاتية على المستوى القومي الكوبيين لتملك عدد كبير من المصانع بسرعة كبيرة. وكانت النتيجة ان انتج الكوبيون سلعاً استهلاكية رديئة — لأنها مصنوعة على عجل — بأسعار مرتفعة بالمقارنة مع الأسعار الدولية. وحتى مشكلة الدفع للسلع الاستهلاكية المستوردة لم تساعَد كثيراً بسبب ارتفاع استيراد المواد الخام بنفس المعدل تقريباً. كان على الحكومة الكوبية أن تتعلم بعد دفعها الثمن الباهظ — الفارق بين الايديولوجية والتطبيق. واعترف تشي بأخطائه وبالأسباب الجذرية لهذه الأخطاء. «من الطبيعي ان ترتكب أخطاء مجموعة من الرجال المبتدئين الذين، ليست لديهم أية خبرة سابقة، والذين كان عليهم أن يقودوا عملية متسارعة من التنمية في وجه القوى العسكرية والاقتصادية لما يسمى بالعالم الغربي.

إن هاجس الحاجة للتصنيع، والتصميم على تصنيع السلع الاستهلاكية محلياً بدلاً من استيرادها كان من الأخطاء التي يمكن فهم إقدام كوبا على ارتكابها. وبعملية حسابية نفهم أن الولايات المتحدة كانت تبتاع، أيام باتيستا، كل السكر الذي تنتجه كوبا تقريباً. وتزودها بكل السلع الاستهلاكية تقريباً. أما الآن فقد غدت الولايات المتحدة عدوة كوبا. وغيرت سياستها السابقة بالنسبة لتشي. إن حصار امريكا الشمالية الاقتصادي للجزيرة والذي خفض بصورة فعالة انسياب البضائع الغربية إلى ما يشبه حالة التقطير أدى إلى اعتماد كوبا على البضائع والسلع التي تزودها بها الكتلة السوفياتية التي تبتعد آلاف الأميال — وهذه

حجة لا تكفي للإحجام عن محاولة صنع البضائع محلياً. لقد أجبر منطق المصاعب الماضية والحاضرة كوبا على أن تجرب الانتاج المحلي. تماماً كما جربت إيديولوجية الثورة الكوبية نفسها.

واعترف تشي أيضاً بالأخطاء النظرية في التخطيط الاقتصادي. وكانت هذه الأخطاء على نوعين متناقضين. فقد حدثت سلسلة من الأخطاء نتيجة لتقليد خطط السنوات الخمس الروسية الضخمة بمراحلها الجامدة فيما يتعلق بالقرارات ونماذج الانتاج التي يصعب تحقيقها. وانبثقت سلسلة الأخطاء الأخرى من القرارات المفاجئة التي اتخذت إرتجالا كي تدفع كل شيء إلى الأمام بسرعة تفوق قدرته وطاقته. وتفاقمت هذه الأخطاء بوجود عوامل أخرى: نقص قطع الغيار للآلات التي كانت تستورد أصلاً من الولايات المتحدة. الإمدادات غير المنتظمة للآلات الجديدة التي ترسلها الشعوب الصديقة في الكتلة السوفياتية. الهجرة الواسعة للمديرين البرجوازيين والفنيين. انتفاء المعرفة المبنية على الإحصاء والخبرة. والأولوية المعطاة لمصادرة الأملاك وإعادة توزيع الثروة خلال السنوات الأولى للثورة. وأكد تشي على عوامل أخرى:

«كان علينا أن نبقي مصانعنا ومزارعنا ومواصلاتنا عاملة دون اعتمادات. ودون مبيدات للحشرات. دون مواد خام. ودون قطع غيار. ودون فنيين ودون تنظيم. خلال تلك الفترة عاث المخربون فساداً في أراضينا. بدعم من الولايات المتحدة. وارتكبوا أعمال التخريب

والعدوان. وقد أجبرنا التهديد الدائم بالغزو على تعبئة الشعب الكوبي مرتين أو ثلاث مرات في السنة، معرضين بذلك البلد للشلل.

نحن لا ننسب جميع أخطائنا في التخطيط إلى قراراتنا، فنحن مدينون بذلك أيضاً إلى فعل الامبريالية التي فرضت علينا عملية تعجيل أكثر مما يستطيع الحزب فرضه. وبالرغم من أخطائنا فقد سجلنا نجاحات هامة».

وإذا كانت نظريات تشي مسؤولة إلى حد كبير عما حدث من أخطاء في حقل الاقتصاد الكوبي، فقد كانت أيضاً مسؤولة بنفس القدر عن نجاحه وازدهاره. ان معيار النجاح لا يكمن في النتائج العملية فقط. كما كان تشي يعتقد، فالبرهان الأخير على إنجاز الحكومة يكمن فيما إذا كانت الحكومة تحتفظ بدعم الجماهير أم لا وهنا تأتي المقارنة. فان مجتمع ليندون جونسون«العظيم»قد خطط برنامجاً أسوأ من برنامج الثورة الكوبية طوال سنواتها الست الأولى. لكن الشعب الكوبي وقف مع حكومته وبرنامجها. فيما أدار شعب أميركا الشمالية ظهره للحكومة وبرنامجها.

قد يكون فيدل كاسترو أعظم منعش للآمال ممن عرفهم العالم. بيد أن تشي زوده بالعديد من الأفكار لانعاش ذلك الأمل. كان تشي النصير الأعظم للحوافز الخلقية، ولمبدأ عدم التضحية بالوعي الثوري من أجل الحوافز المادية أو الكفاية الاقتصادية. فما كان ليوجد في كوبا اليوم عامل مدني يستمر في دعم الحكومة لو لم يتعلم أن يعمل ليبني الاشتراكية.

مفضلاً ذلك على مأواه الخاص. فاذا أدى الانخفاض المستمر في مستوى معيشة النصف الأعلى من طبقات المجتمع في كوبا الى هجرة نحو خمس أفراد هذه الطبقات تقريباً. فما تزال البقية باقية لـلتعلم من القواعد الخلقية من أجل الثورة. لقد أثبت مفهوم تشي حول الإنسان وثقته في طبيعة الانسان. صحة هذا المفهوم في كوبا بشكل عام. إن الانسان ليس مجرد معدة أو حساب في البنك. والمجتمع ليس معسكراً لـلمتشردين. ان الثورة الكوبية، على الرغم من أعدائها الخارجيين وعزلتها وأخطائها الاقتصادية، لم تواجه الانهيار وقد كان مكتوباً لها أن تخفق منذ وقت طويل لو لم تنتصر أفكار تشي ومثله العليا على آراء الشيوعيين المتزمتين والانتهازيين، الذين حاولوا اغتصاب الثورة الكوبية وتطويقها بحزام التجربة السوفياتية المتعبة. وقد يكون تشي وضع الاقتصاد الكوبي على شفا الهاوية، ولكن ليس هناك رجل آخر غيره. عدا فيدل. وضع الشعب الكوبي على حافة المجتمع الجديد في عالم جديد. واليوم يرتل الأطفال في كل قاعة دراسة... «سوف نصبح مثل تشي».

الفصل السادس

بحثاً عن التحرير

ان حياة الثائر المقاتل تجعل حياة الآخرين غير مرضية. فكما كان توم في «غاتسبي العظيم The Great Gatsby » ينشد دوماً الفتنة الدرامية للعبة كرة قدم يتعذر استعادتها ، كان تشي يجلس خلف مكتبه يبحث دوماً عن أيام في السيرا مايسترا يتعذر استردادها. وجد تشي في الحرب نوع السلام الذي ينشده. وفي تحرير الآخرين تحريراً لنفسه.

عمل تشي من عام ١٩٦٠ فصاعداً سفيراً متجولاً لفيدل كاسترو. وسافر في بعثات هامة لموسكو- غير ناجحة في معظمها- كما سافر لفيتنام الشمالية ولبلدان أخرى شيوعية وغير منحازة. ولكنه عندما غادر كوبا في عام ١٩٦٥ ليصبح مقاتلاً متفرغاً ومتجولاً حول العالم ، كان بذلك يترجم عقيدته . وهي أن من واجب الثورة الكوبية مساعدة البلدان الأخرى على القتال ضد الامبريالية. وكانت هناك أسباب أخرى لذهابه. فان علاقة تشي بفيدل ، على الرغم من كونها رفاقية ومجبولة بالمحبة اتسمت

بالصعوبة . لقد شغلت الثورة الكوبية فيدل بصورة كلّية ، بينما بقي تشي منهمكاً بتوسيع دائرة الحرب لتشمل أمريكا اللاتينية بل العالم أجمع . كان بوسع فيدل أن يكون ثورياً متفرغاً في داخل الثورة الكوبية ، أما تشي فلم يكن بوسعه أن يكون ثورياً متفرغاً إلا خارجها . كان فيدل هو القائد في كوبا ، بينما أراد تشي أن يكون قائداً في مكان آخر ، وربح الأول الثورة الكوبية ، وأراد الثاني أن يربح ثورة أخرى . كان فيدل سياسياً موهوباً ولامعاً . وكان تشي بطبيعته مقاتلاً ولامعاً . ووجد فيدل متعة شخصية في التخطيط القومي والدبلوماسية وإلقاء الخطب ، بينما كان تشي تزعجه المساومات والكلام غير المقرون بالعمل . وأكثر من ذلك ، فقد رأى فيدل ان أفكار تشي الاقتصادية لم تؤت أكلها سريعا ، ولم يرضَ تشي بشعور الفشل . وفي خريف عام ١٩٦٤ أخبر تشي فيدل بأنه يريد الذهاب بعيداً لبدء تحرير أميركا اللاتينية من النقطة المركزية في بوليفيا . وحاول فيدل عبثاً صرفه عن قراره ، ثم بدأ في مساعدته لتخطيط حرب عصابات جديدة .

لم يكن تشي المقاتل الوحيد بين المقاتلين الذي جاؤوا من السيرا مايسترا وأرادوا أن يقاتلوا ثانية . ويعيد اوتيريا بويتيرز وهو عضو في مجموعة تشي ، إلى الأذهان قوله «كان بيننا بعض المقاتلين ممن درجوا على القول دوماً ، حالما احرزوا النصر على باتيستا ، يتحتم علينا أن نذهب ونقاتل في بلدان أخرى» وأكثر من ذلك ، فإن فكرة مواصلة القتال ضد الامبريالية كانت هدفاً يتطلع اليه جميع قادة الثوار . وعندما كتب تشي رسالته

الوداعية إلى فيدل قال «هناك أمم أخرى تحتاج إلى جهودي المتواضعة. أنا أستطيع القيام بما لا تستطيع أنت القيام به بسبب مسؤوليتك كقائد كوبي». هذه العبارة أوحت بأن تشي كان يواسي فيدل بسبب ان فيدل لم يستطع أن يفعل ما كان ينبغي عليهما كليهما فعله.

ومع ذلك فإن تشي عندما قررالعودة إلى القتال الفعلي كان رجلاً في أواسط عمره. مصاباً بالربو ومترهلاً نسبياً بفعل سنوات قضاها في الإدارة وباستثناء غاريبا لدى وزاباتا. فإن قلة من القادة الثوريين تخلت عن السلطة لتعود إلى القتال ثانية. وهو - شأنه شأن القائدين المذكورين - حوَّله قدره إلى بطل اسطوري في عصره.

لقد تضمن قراره من الحكمة أكثر مما تضمن من الرومانسية او السأم. فقد كان له اعتبار هائل وكان وجوده في الميدان يعادل وجود كتيبة. وكانت حركة الثورة العالمية مشهداً يومياً في كوبا التي كانت تعج بمدارس لتدريب الثوار والمبعدين السياسيين. وبالمؤتمرات التي تعقد للعصيان المسلّح. كانت البلاد بأكملها تدور حول ما يشبه رقصة الحرب، برجال يرتدون بزات الثوار، وغدت حالة الحصار تمثل الشعور القومي السائد. كان تشي أهم رجل بين كثرة شعرت بأنها مكرهة على العودة الى ساحة الوغى. فثمة بضعة آلاف من الكوبيين لاقوا حتفهم في السنوات الأخيرة أثناء اشتراكهم في ثورات بالخارج. ورافق تشي الى بوليفيا سبعة عشر كوبياً، بينهم عدد من المحاربين القدامى من أيام السيرامايسترا، وكان من بينهم أربعة يتولون أعلى المناصب في الجيش

الكوبي «Commandates» وأربعة من اعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي . وهي اكثر المراكز مسؤولية في الجزيرة . وكان هناك اثنان في الأربعين من العمر أحدهما نائب وزير. والآخر مدير للمناجم . ان مثال تشي لا يعتبر فريداً بالنسبة لأمة ترسل كبار المسؤولين للقتال في الأدغال . لقد كانت الثورة مخاطرة تستحق التبني من قبل جزيرة صغيرة . شعرت بعزلتها عن العالم المحيط بها . كانت كوبا بحاجة الى كوبا أخرى أو ثانية أو ثالثة بقربها .

وقد كان لدى تشي أيضاً سبب شخصي في الذهاب . فهو انسان أرجنتيني أو مهما كانت حجته حين يقول بأنه يشعر وكأنه في وطنه أينما كان . فإن بلاده الأرجنتين كانت ما تزال رأسمالية وتفتقر إلى إصلاحات . وبمباركة تشي غادر زميل ارجنتيني يدعى ماسيتي مع ثلاثة عشر رجلاً -- بعضهم من الكوبيين-- ليباشروا تحرير الأرجنتين من الأدغال في الشمال . وبعد عشرة شهور من التعثر دون جدوى والاضطراب الذي لا حد له . لاقت قوة ماسيتي الهلاك والتشتت على يد الجيش الأرجنتيني . وقد هزت الكارثة تشي الذي كان يأمل بأن يمهد ماسيتي لقدومه فيما بعد . وشعر تشي بأن عليه أن ينتقم لفشل ماسيتي . على الرغم من أنه لم يكن مسؤولاً عنه أكثر من مسؤولية فيدل عن فشل تشي الخاص في بوليفيا . إنه لمن المستحيل إعطاء دعم حاسم لقوة من الثوار المعزولين في المراحل الأولى . فالقوة مستقلة تماماً . وبقاؤها هو من شأنها الخاص .

وكان الوقت قد حان ليغادر تشي كوبا. فقد كان عليه أن يتحمل مسؤولية فشل السياسة الاقتصادية الكوبية المبكرة. ووجد الروس والأوروبيون الشرقيون الذين كوانوا يقدمون العون المالي للاقتصاد الكوبي أن ذلك يسبب نزفاً ثقيلاً لاقتصادياتهم الخاصة. وضغطوا على فيدل كي يضبط الأمور في بلده. وأراد الروس أن يعاود الكوبيون تزويدهم بالسكر مقابل مبادلة البضائع والاستثمارات الروسية. وأن يشجعوا الحوافز المادية في الصناعة. وما كان بوسع تشي أن يقبل مثل هذه السياسات مطلقاً. لذا فقد اختار أن يواصل رحلاته مرة أخرى. وقد ألقت والدة تشي في آخر جواب لها مرسل لابنها ضوءاً ساطعاً على ما كان يضمره تشي في رسالته الأخيرة لها. «إذا كانت كل الطرق في كوبا مسدودة لسبب أو لآخر. فإن في الجزائر السيد بن بلا[1] الذي سيسعده كثيراً أن تذهب فتنظم اقتصاد بلاده أو تعينه على مهمته بنصائحك. وكذلك شأن نكروما في غانا وبالطبع ستكون غريباً هناك ولكن يبدو ان هذا قدرك». فكان على تشي أن يتحرك.

وقد تآزرت الأمور على إرسال تشي للحرب ثانية. وفي عام ١٩٦٣ أخبر جريدة «المجاهد». لسان حال الحكومة الجزائرية. أن موضوع الثورة في أمريكا اللاتينية يستحوذ على اهتمامه. لم يتحمل تشي. كشخص فعال وصريح. عدم كفاءة تعقيد البروقراطية الكوبية مدة

(١) كان السيد أحمد بن بلا رئيسا للجمهورية الجزائرية حينذاك.

أطول . وكتب في عام ١٩٦٤ حول مهمة الحكومة يقول «بما أنها مهمة . وبما أنها مهمة حكومة . فانها لا شك ستتلاشى ولن تنجز الحكومة شيئاً» . كان بالتأكيد يتوق إلى الماضي . إلى الاعمال والنتائج البسيطة التي حققها الثوار في القتال . وكتب في رسالته الوداعية عند مغادرته كوبا ما هو «مزيج من مشاعر الفرح والحزن» وأشار الى تحرره من وهم الإدارة في عبارته الغامضة «أخلف ورائي انقى أحلامي كشخص بان» . وكان تشي يشعر كل من حوله بأنه محارب في حرب مقدسة وكان ذلك هو الحافز الأساسي لذهابه . وكتب في النهاية لفيدل يقول بأنه آلى على نفسه ان يحقق «أقدس الواجبات : واجب الكفاح ضد الامبريالية حيثما وجدت» وهذا ما فعله .

عندما جاء فيدل ليرثي تشي بعد وفاته قال «سوف يكون تشي في المستقبل مثالاً ليس له مثيل ، لقد تحرر عقله وقلبه من الوطنية الضيقة والمحاباة والتعصب القومي وحب الذات» . ومع ذلك . فهذا لم يكن صحيحاً بين ١٩٥٩ — ١٩٦٤ عندما كان تشي الخادم المخلص للدولة الكوبية . حيث كان يعمل كسفير ويدافع عن السياسة الكوبية حيثما ذهب . وقد سلك تشي بإخلاص الطريق الكوبي في الدبلوماسية الدولية ، مروراً بالحرب النفسية مع الولايات المتحدة . الى تشجيع حركات الثوار في أمريكا اللاتينية ، إلى علاقات المحبة مع البلدان الشيوعية . لقد بدا تشي وكأنه صهر نفسه في قوميته الكوبية الفخرية .

وبحلول عام ١٩٦٤ استعاد تشي التزامه القديم بالدفاع عن الأمم الفقيرة في العالم. وبدأ يعتقد أن الخلاف الحقيقي لم يكن بين الرأسمالية والشيوعية. إنما بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة. وكانت خيبة أمله كبيرة في شروط التبادل التي وضعتها روسيا والبلدان الشرقية لمساعدة كوبا وغيرها من دول العالم الثالث المكون من أمم القارات الثلاث. افريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية. وقد وقف في وجه العالم الثالث عالمان. عالم غربي وآخر شرقي. رغم ادعاء احدهما معاداة الآخر سياسيا. وكلا العالمين مكون من كتل قوية. تضم بلداناً متطورة ذات مستوى معيشي مرتفع. وقد رسم التخلف والجوع حدوداً جغرافية مختلفة عن تلك التي رسمتها الرأسمالية والشيوعية. ووضع الفاصل الجديد الحدود بين المالكين والمعدمين. مصنعي البضائع ومزودي المواد الخام. الشعوب البيضاء والشعوب السوداء. ثم القوى الاستعمارية وممتلكاتها القديمة. لم يفصل الخط بوضوح دولة عن أخرى في كل حالة وإنما حدد كل رسم للفاصل بوضوح أكثر عالماً ثالثاً مقاماً بعيداً عن كتلة القوى الغربية والشرقية.

سيطر مفهوم تشي عن العالم الثالث على مخيلة الجماهير بصورة كلية. وقاد هذا المفهوم الى طرق للتفكير بل حتى إلى تجمعات دبلوماسية. وكان ذلك ما هدف إليه تشي عندما أعلنه في خطاب في مؤتمر التجارة والتنمية التابع للأمم المتحدة في شهر آذار ١٩٦٤. يجب ان لا يدب التنافس والتنازع بين الأمم الصغيرة في سبيل الحصول على القروض من الأمم الغنية. بل عليها أن تتمسك بالتضامن فيما بينها.

«إذا كانت مجموعة الدول المتخلفة تتنافس فيما بينها بلا جدوى من أجل فتات مائدة الجبابرة ، متيحة بذلك الفرصة لشق صفوفها المتفوقة عددياً ... فان العالم سيبقى كما هو».

يجب على الأمم الفقيرة أن تتعلم تجنب مزاحمة بعضها البعض في أسعار تزويد المواد الخام. وأن ترفض الرشاوى للسير إما بركب الكتلة الشرقية أو الكتلة الغربية . كان تشي يعظ على الدوام بفضائل ما يشبه نقابة عمال للبلدان الفقيرة. ففي الاتحاد تكمن القوة والقدرة على المساومة . ان أمة تتصرف تصرُّف الأجرب (بالمعنى العمالي للكلمة) ، هي أمة نذلة. وكان لكلماته وقع خاص لدى أولئك الذين رأوا أنفسهم مثل أشخاص (فرانز فانون) في «معذبو الأرض» من العالم الثالث أكثر من أولئك «المعذبين» الذين وردت أسماؤهم في أُغنية «الانترناسيونال» ، وهم الشغيلة الفقراء في الأمم الصناعية.

وفي خطابه الذي ألقاه في الجمعية العمومية للأمم المتحدة في كانون الأول ١٩٦٤ اتخذ تشي موقفاً أكثر عدائية . فقد لمح إلى أنه بدأ يفقد ثقته بالحلول السلمية بما فيها المواثيق الدولية ، والاتفاقات التجارية ، والمحادثات ، والعون الأجنبي . فهذه لن تحل الصراع بين الفقير والغني . وأعلن «إننا كماركسيين سبق ان أكدنا على أن التعايش السلمي بين الأمم لا يشمل التعايش بين المستغِلّين والمستغَلّين . المضطهدين والمضطهَدين»

كانت هذه العبارة هجوماً صريحاً على المحاولة الروسية الجديدة لتحقيق « تعايش سلمي » مع الولايات المتحدة . بعد أن جعل كنيدي خروتشيف يتنازل غن موقفه ويسحب الصواريخ من كوبا . وكانت أيضاً بمثابة إعلان حرب مفتوحة على الامبريالية..

وفي نفس الخطاب تحدث تشي مطولاً عن الاحداث التي وقعت في كوبا منذ مقتل لومومبا . مظهراً شعوره الخاص بالتعهد الشخصي في تلك المنطقة. «يجب على أحرار العالم أن يهيئوا أنفسهم للانتقام من الجريمة التي ارتكبت في الكونغو». واظهر أيضاً تطابق إحساسه مع الشعوب غير البيضاء في العالم ، وذلك في شجب أعمال الشعوب البيضاء بنفس العنف الذي يبديه القومي الافريقي.

«لقد أزيلت الغشاوة عن أعيننا وتفتحت أمامنا الآن آفاق جديدة . ونستطيع أن نرى ما كنا عاجزين عن رؤيته بالأمس في ظل ظروف من العبودية الاستعمارية– وهو أن «الحضارة الغربية» تخفي تحت واجهتها البراقة مسرحاً مليئاً بالضباع والذئاب . ان هذا هو الاسم الوحيد الذي ينطبق على أولئك الذين ذهبوا لإنجاز مهماتهم «الإنسانية» في الكونغو. سفاكو دماء غذاؤهم الشعوب البائسة ! هذا ما تفعله الامبريالية للبشر. وهذا ما يتسم به الامبرياليون «البيض».

ان الغضب الذي تتسم به الفقرة يغاير عبارات تشي العادية الموزونة والشهيرة ، إنها تكشف لنا عما كان يجول في ذهنه ذلك الوقت وما عساه أ

يفعل في المستقبل . وعلى ضوء هذه المشاعر نستطيع أن نفهم السبب الذي جعله يقرر القتال في الكونغو . وكنتيجة للخيبة التي أصابت آمال تشي بصفته مساهماً في بناء كوبا . وإظهاراً لاشمئزازه من المساعدة الأنانية المشروطة التي تمنّ بها القوة الشيوعية البيضاء على الدول المتخلفة . فقد تخلى عن مكانته كإداري وكدبلوماسي ثوري مضحياً من عمره لسنوات قضاها في هذين الحقلين ثورياً متجولاً ، كما كان في شبابه ، لا يعرف الكلل ، مستعداً لأن يعيش ويتجاوب مرة أخرى مع آلام الفقراء من البشر ويصاحب المعذبين في الأرض اينما وجدوا .

وصاغ تشي فكرته الجديدة بشكل أعنف في مؤتمر التضامن الافريقي الآسيوي الذي عقد في الجزائر في شباط ١٩٦٥ والذي هاجم فيه السياسة الروسية بصورة مباشرة ، فأربك بذلك الحكومة الكوبية وولّد الحنق عند الروس الذين كان يساورهم الشعور بأنهم قدموا الكثير لكوبا بما ينتفي معه المبرر لأن توجه لهم تلك الاهانات . ولكن حتى الروس كان عليهم أن يعلموا أن لا منّة في تقديم العون الاجنبي . وأعلن تشي «ان من واجب البلدان الاشتراكية أن تصفي علاقتها الضمنية مع الأمم المستغلة في الغرب» . وبالنسبة إليه لم يكن هناك من تحديد للاشتراكية سوى إزالة استغلال الإنسان للإنسان . فليس بوسع أي بلد أن يشيد بالاشتراكية إذا لم يساعد جميع البلدان على بناء الاشتراكية ومهاجمة الامبريالية .

«ليس هناك من حدود لهذا «الصراع حتى الموت» ولا نستطيع أن نبقى غير مبالين لما يحدث في أي جزء من العالم . إن انتصار أي بلد ضد

الامبريالية هو انتصار لنا . كما أن هزيمة اي بلد هي هزيمة لنا . إن ممارسة الأممية العالمية ليست من واجب البلدان التي تناضل من أجل تحقيق مستقبل افضل فحسب . بل إنها ايضاً ضرورة حتمية».

لقد حاول تشي أن يمارس دوماً ما كان ينادي به . وكان انتصاره ومأساته في آن معا أنه ورط نفسه بزلات من لسانه . كان هذا آخر نداء له للعمل قبل أن يباشر العمل بنفسه . وعلى الرغم من أن الشهور الثمانيةعشرة التالية من حياته بقيت يكتنفها الغموض . فقد عاد بالتأكيد الى كوبا قبل أن يغادرها ثانية للكونغو ليقاتل المرتزقة البيض الذين أثاروا حنقه . وقبل أن يغادر كوبا أرسل رسالة وداعية إلى فيدل يقول فيها . إنه سوف يحاول أن يبقى وفياً لمبادئه مهما كانت النتائج النهائية . وإنه كان مندمجاً دوماً مع ما حققته الثورة الكوبية عالمياً . وقد اصطحب معه إلى الكونغو عدداً من رفاقه في السيرا مايسترا كما واصل بعضهم الآخر الذهاب الى بوليفيا .

ان الذي حدث مع تشي في الكونغو ما يزال مجهولا . والأرجح أنه التحق بالفرق المسلحة التي كان يقودها موليل وسوماليوت في القتال ضد تشومبي . وحاول مع الكوبيين الآخرين ان يدربوا الكونغوليين على قتال حرب العصابات . ولكنهم اكتشفوا ان المتطوعين كانوا دون المستوى المطلوب . وبعد تسعة شهور من الاخفاق النسبي قرر تشي ورفاقه الكوبيون مغادرة البلاد . لم يكن بوسعهم تعليم التلامذة الافريقيين أكثر مما تعلموه من تجربتهم الكوبية . ويفيد أحد التقارير أن ثمة شيئاً آخر أثار إشمئزاز تشي .

وهو اكتشافه . إلى جانب وجود المرتزقة البيض آكلة لحوم بشر وسفاكين . كان تشي هذه المرة الطبيب الذي ثار .

في الوقت الذي كان تشي يتأهب لمغادرة الكونغو كان كوكوبيريدو . وهو مقاتل بوليفي . قد ابتاع مزرعة على نهر نانشوازو (Nanchuasu) في جنوب بوليفيا لاستخدامها كقاعدة لثورة تشن على حكومة الجنرال بارينتوس البوليفية . وقد ناقش ماريو مونجه زعيم الحزب الشيوعي البوليفي مع فيدل كاسترو الخطط لجعل هذه المنطقة نواة لثورة تشمل أمريكا اللاتينية بالرغم من كونها منطقة عسكرية منذ ثلاثين سنة خلت . وفي الوقت الذي عاد فيه تشي إلى كوبا سراً في خريف ١٩٦٦ . كانت قوة من الثوار تتسلل إلى البلاد وتخزن السلاح والمؤن في سانتا كروز ولاباز . وفي نهاية أكتوبر غادر تشي قاصداً بوليفيا ليبدأ حرباً كان يأمل أن تحرر قارته بأسرها من الامبريالية . كان يبغي أن يكون بوليفار الجديد و أن ينجح حتى أكثر من المحرر العظيم . لم يكن يهدف الى القضاء على سيطرة الامبريالية فحسب . بل الى توحيد امريكا اللاتينية في كتلة اشتراكية كذلك .

أرسل تشي . بينما كان لا يزال يستعد لثورته الأخيرة . رسالة إلى كوبا تليت في منظمة تضامن دول القارات الثلاث في هافانا عام ١٩٦٧ ، شرح فيها عقيدته قبل موته ، وأورد خلاصة لفلسفته التي اكتسبها من حياته مقاتلا من أجل الشعوب الفقيرة على الأرض .

ابتدأ تشي بالتساؤل عما إذا كان ثمة سلام نسبي حقاً في الإحدى والعشرين سنة التي تلت الحرب الأخيرة. فعلى سبيل المثال استمرت الحرب في فيتنام ما يقرب من ثلاثين سنة. بينما قاتل الشعب هناك ثلاث قوى أمبريالية على التوالي– اليابان. ثـم فرنسا ثـم الولايات المتحدة.. وكان الفيتناميون ما يزالون يعانون من القصف وتصعيد الحرب من قبل الأمريكيين الذين كانوا البادئين بالعدوان. ولكن هذا الأثم ينطبق أيضاً على أولئك الذين «عندما جاء وقت الحسم ترددوا في جعل فيتنام جزءاً منيعاً من العالم الاشتراكي. متفادين بالطبع مخاطر حرب تشمل الكرة الأرضية بأسرها» وقد استمر تشي– دون أن يذكر بالاسم روسيا والصين – في اتهامه القوتين الشيوعيتين الكبيرتين بالتنازع فيما بينهما وبإحداث الانشقاق في القوى المعادية للامبريالية في العالم. ولقد أسقط الفيتناميون، بفضل بطولتهم فقط، «مجتمع الولايات المتحدة العظيم» في مجرور القاذورات وأقنعوا الأمريكيين بأن القتل لم يعد عملاً مفيداً بالنسبة لاحتكاراتهم.

فماذا بوسع بلدان العالم الثالث أن تفعل عندئذ إذا كان شبح حرب ذرية عالمية قد سبب تسوية بين البلدان الشيوعية والرأسمالية المتقدمة. وسمح بإبادة الشعب الفيتنامي؟ كان جواب تشي أنه ينبغي تجاهل هذا الشبح. «بما أن الأمبريالية تبتز البشرية بتهديدها بالحرب. فإن رد الفعل الحكيم هو أن لا نخاف الحرب». يجب على بلدان أمريكا اللاتينية وافريقيا وآسيا أن يحرروا أنفسهم مهما كانت التضحيات. فقد تأخرت

الثورة في آسيا وافريقيا أما في امريكا اللاتينية فقد بدأت منذ وقت من بؤر بمجموعات الثوار العاملة في غواتيمالا . وكولومبيا . وفنزويلا . وبيرو وبوليفيا . فاذا قدر لهذه البؤر أن تصبح ميادين قتال حقيقية . فسوف تجد الولايات الأميركية المتحدة نفسها مجبرة على التدخل بالأسلحة الحديثة والتورط بجيوشها النظامية . كان هذا هو الطريق لمساعدة النضال الفيتنامي ولقهر الولايات المتحدة .

«إنه طريق فيتنام . إنه الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الشعب . إنه الطريق الذي سنسلكه نحن في امريكا اللاتينية ... سوف يكون للثورة الكوبية اليوم مهمة خلق فيتنام ثانية أو ثالثة في العالم»

وبما أن الأمبريالية نظام عالمي . فلا يمكن إلحاق الهزيمة بها إلا في مواجهة شاملة . أي في هجوم على مستوى الكرة الأرضية يستهدف القوة الرأسمالية الأساسية . لقد برهنت فيتنام على أن القوات المسلحة التابعة للولايات المتحدة كانت معرضة للهجوم والسقوط على أرض الثوار الذين يقاتلون من أجل بلادهم . إن إيديولوجية قوية تستطيع أن تهزم أكثر أنواع التكنولوجيا تقدماً . كانت الروح المعنوية نقطة الضعف عند الامريكيين الشماليين وهم . لولا ذلك . لكانوا مقاتلين اشداء . سوف **تشن عليهم المعارك دامية عنيفة كما ينبغي تجنب التضحيات التي لا تعود بالفائدة ، وبالقتال وحده يمكن إلحاق الهزيمة بالامبريالية الاقتصادية للولايات المتحدة .**

«هذه المعارك يجب ان لا تكون مجرد قتال شوارع تستخدم فيها الحجارة مقابل القنابل المسيلة للدموع. أو مجرد إضرابات عامة هادئة. ولا أن تكون معارك شعب غاضب يحطم في يومين أو ثلاثة أيام المشانق القمعية للقلة الحاكمة. بل يجب أن يكون النضال طويلاً وقاسياً. وأن تمتد جبهته الى ملاجىء الثوار في المدن. ومنازل المقاتلين... في مناطق السكان الريفية. التي تعرضت للذبح والى القرى والمدن التي دمرتها قنابل العدو.

إنهم يدفعوننا نحو الصراع ولا مناص من قبول التحدي فيجب أن نتجهز له وان نصمم على الانتصار فيه».

كانت بدايات الصراع تشير إلى انها ستكون قاسية. ولكن الطريق الوحيدة لمساعدة فيتنام كان في شن حرب شاملة على الأمريكيين الشماليين. فيجب أن لا يشعر اليانكي بالأمان في مقره أو في السينما أو في البلدة. يجب أن يسيطر عليه الشعور بأنه حيوان يائس. وعندما تزداد تصرفاته الحيوانية تقترب ساعة سقوطه المريع. فمن واجب الجميع اذن ان يقاتلوا معاً في أممية بروليتارية حقة. إن الموت في ظل علم الفيتنام أو فنزويلا أو غينيا أو بوليفيا ستكون له نفس الروعة والجاذبية لدى الامريكي والأسيوي والافريقي وحتى للاوروبي. وان كل رجل يقاتل ويموت من أجل تحرير بلاد الآخرين إنما يقوم في الوقت نفسه بتحرير بلده. لقد ولى زمن التباعد بين مجموعات بلدان العالم الثالث وعلى جميع

البلدان ان تتحد لمقاتلة العدو الأمبريالي المشترك. الولايات المتحدة، التي بدأت بالتفسخ داخلياً في حرب طبقية وعنصرية.

«حيثما يمكن ان يفاجئنا الموت فأهلا به. بعد ان تكون صرختنا القتالية قد وصلت بعض الآذان الصاغية. وبعد ان تكون يد أخرى قد امتدت لتحمل بعدنا سلاحنا. وبعد ان يكون رجال آخرون يرافقون مواكب حضارات الشهداء بزخات مزغردة من الرشاشات مصحوبة بصرخات القتال الجديدة وأهازيج النصر».

بهذه الروح ذهب تشي إلى بوليفيا ليقاتل فيها وفيها يموت.

الفصل السابع

الموت والسطوة

تعتبر يوميات غيفارا الكوبية أكثر كتاباته الطافحة بالشعور الانساني والذكريات المفيدة. فهذه المذكرات دونها يوميات على مدى ١١ شهراً أثناء كفاح كان البقاء يلوح فيه متعذراً في الأدغال والجبال والعزلة أمام عدو شرس ومدرب، تظهر روح الاصرار على الصمود. إنها تكشف النقاب عن نفسية تشي الأعزل الذي لم يكن مهيأ للحرب والقتال. لكن عهد الخطابة والتفلسف والنقاش قد ولى، ولم يبق أمام الرجل العظيم الا السهر على دفع رجاله للقتال أثناء تقدمه هو نحو موته. وتمتلئ يومياته، كتحفة روبنسن كروزو الرائعة، بصور عن وسائل النجاة التي اتبعوها والاسلحة التي استعملوها والأطعمة التي أكلوها والمسافات التي قطعوها، والمؤن التي حملوها. أما الشدة والصبر والشجاعة وروح الرفقة التي مارسوها وعاشوها فتلوح بين الأسطر دونما حاجة إلى ذكرها.

«لم يعبر النهر سوانا نحن من المفرزة الوسط بمساعدة روبيو والدكتور. كنا نريد أن نصل إلى مصب نهر نانشواسو Nanchuasu ولكن ثلاثة منا كانوا يجهلون السباحة ـ عدا أحمالنا الثقيلة. وجرفنا التيار نحو كيلو متر دون ان يكون بمقدورنااستخدام الطوف كما كنا نعتزم ـ وبقي ١١ رجلاً على تلك الحال عند الضفة بانتظار اليوم التالي حين يقطع الدكتور و روبيو النهر مرة أخرى. واصطدنا أربعة طيور لغذائنا لم يكن طعمها كريها الى الحد الذي كنا نظن. كان كل شيء منقوعاً في الماء بالاضافة الى استمرار رطوبة الجو الشديدة ـ وكانت معنويات الرجال متدهورة كما انتفخت قدما ميجويل وتورمت أرجل بعض الآخرين. وكان الارتفاع ٥٨٠ متراً».

هذا ما كان يحدث في يوم عادي من أيام الثوار (وقع عليه الاختيار عشوائياً) ما عدا الموت المفاجيء أو الوقوع في كمين لم يكن في الحسبان. أما تدوين المشاعر في المذكرات فنادر بحيث لا تذكر إلا مقرونة بالانتصار على أفواج العدو التي تحاصر الثوار الثلاثين. وعندما استشهد توما وبقية الرفاق من أيام السيرا مايسترا كان تشي يدون الخسائر بايجاز يثير الشعور الى حد لا يطاق:

«لقد خسرت بفقدان توما رفيقا لازمني طوال السنوات الماضية. كان مخلصاً حتى الرمق الأخير. كانت خسارتي في توما كما لو انني خسرت لي ولدا. عندما سقط طلب منهم أن يعطوني ساعته التي سأحملها طوال

أيام الحرب. ألقينا الجثة على ظهر دابة وسرنا بها طويلاً كي نواريها التراب بعيداً عن ذلك المكان».

ان المأساة البطولية تتطلب إحساساً بالقدر المحتوم. وفي كل مكان من «اليوميات الكوبية» نرى الموت ينسل من هنا وهناك. لم يذهب تشي ليقاتل في بوليفيا، ليُردَى قتيلاً، ولكنه كان يعلم بأن النزاعات هي التي تحول دون بقائه حياً. وقد علمته بداية الحملة الكوبية بأن المجموعة بكاملها قد تكون عرضة للإبادة في المراحل الأولى كما حدث مسبقاً في اليغريا دي بيو. وإذن فلا بد ان يحالف المجموعة الحظ فضلاً عن المهارة كي تبقى حية. وقد انتهى حظ تشي في بوليفيا.

يسهل على المرء أن يتعلم الحكمة بعد حادثة مقتل تشي وفشل العصيان البوليفي المسلح مبدئيا. فثمة عوامل عديدة تجعل النجاح في بوليفيا كما في كوبا أمراً بعيد المنال. أولاً، كان تشي بوليفيًّا وقادة الثوار الآخرون كوبيين. بينما سلكت الثورة في أمريكا اللاتينية على الدوام خطاً وطنياً قوياً. فحدث احتكاك داخل مجموعة الثوار نفسها بين الرفاق الكوبيين والبوليفيين، في حين ارتاب الهنود البوليفيون بالكوبيين اذ لم يعتبروهم غرباء فحسب، بل أيضاً رجالاً من البيض الكاذبين. ثانياً، سبق لبوليفيا ان قامت باصلاح زراعي إبان نظام حكمها اليساري السابق. قد يكون الهنود البوليفيون فقراء إلى حد الشقاء وها هم لأول مرة منذ ٣٠٠ عام يمتلكون أرضهم الجرداء فكان فدان في اليد يساوي أي حلم على

الشجرة . وكان فشل تشي الكلي في تجنيد فلاح واحد يساند الثوار خلال الأحد عشر شهراً من التهيئة والقتال هو السبب الرئيسي في انهزامه . وسبق لتشي أن قال في كتابه «حرب العصابات» ان السبب الرئيسي للنجاح في كوبا هو مساعدة الفلاحين في السيرا مايسترا : «أن تجرب هذا النوع من الحروب دون تأييد السكان هو المدخل إلى كارثة حتمية» .

وثمة عناصر أخرى حكمت على الثوار بالإخفاق . فكان عزل الثوار عن السكان هو الطامة الكبرى . إذ سرعان ما غُرر بالمؤيدين من الطبقة الوسطى في المدن الكبيرة ومن الثوار الخونة المرتدين . وكذلك اخفقت الانتفاضات المماثلة في البيرو وبلدان أخرى من اميركا اللاتينية بسبب انعدام الصبر والمواصلات . لم يقو تشي على أن يكون فظاً عنيفاً فيعدم الذين يظن انهم كانوا خائنين من الثوار وغير الثوار مما ادى أولاً إلى سقوط قاعدته في أيدي العدو وفقدان أدوية الربو التي لا غنى له عنها والمؤن والأوراق . ثم ثانياً الى شق قوته الخاصة الصغيرة الى قسمين ابيدا بعد مطاردة كلٍ منهما على حدة . وبدأ يظهر على تشي مع توالي ضعف جسمه شيء من الضعف ونقص في إمكانياته القيادية ودوافعه العدوانية . وفي احدى المرات . بلغ به الاضطراب حداً دفعه الى طعن فرس مخلصه . أما بطولته فقد تجلت في استمرار نضاليته على الرغم من شعوره بحتيمة انهياره وانهيار مجموعته . لقد صمم على مواصلة القتال ما دام باستطاعته الصمود .

ساعدت العوامل السياسية في داخل بوليفيا على هزيمة تشي .

يضاف إلى ذلك أن الجنرال باريتتوس كان بوليفياً بالرغم من أنه كان بوسع تشي ان يتهمه ، بحق ، بقبول السلاح والخبراء من الولايات المتحدة . كذلك كان بوسع باريتتوس أن يتهم الثوار ، بعدل ، بأنهم مقودون ومدعومون من قبل الشيوعيين الكوبيين . وقد سبق لفيدل كاسترو أن رفض اصطحاب عدد كبير من غير الكوبيين الى غرانما خوفاً من ان ينظر الى ثورته على أنها غزو أجنبي . غير ان تشي كان دون ذلك حكمة ووعياً . وقد تجلى فشله الأكبر في فقدانه المرونة السياسية . كان عليه أن يتوصل إلى تفاهم مع رجل واحد : ماريو مونجه ، لينهي عزلته ، ويخلص مجموعته من الموت اختناقاً على يد قوى جبارة . كان مونجه هذا زعيم الحزب الشيوعي البوليفي . كان على تشي أن يحصل على مساعدته في إثارة الشعب في المناجم وفي لاباز . لقد كان فيدل داهية حقاً عندما أعطى الضمانات للسياسيين المدنيين كي يحصل على تأييدهم . وقد شجب تشي نكوث فيدل بوعوده فقال :

«لم نكن راضين بهذه التسوية ، ولكنها كانت ضرورية ، وكانت تقدمية في ذلك الحين. لم يكن من الممكن ان تستمر قائمة بعد ان اصبحت عائقاً في وجه التطور الثوري . ولكن كان لدينا الاستعداد لتقبلها» .

ولكن تشي رفض العمل على التوصل إلى تسوية مع مونجه . فعندما طلب مونجه ترؤس الحزب الشيوعي البوليفي للثورة ثمنا لدعمه ، أعلن تشي أنه لا بد له أن يكون هو الرئيس . كان تشي يرى ان الرئيس هو الذي

يمارس القتال وهو منعزل في الغابات والجبال كما يجب ان يكون هذا الرئيس هو الزعيم العقائدي أيضاً. كان ذلك ينسجم مع العقيدة الكوبية في أنه ينبغي على قادة الثوار أن يقودوا الثورة. وعلى أية حال فقد نكث مونجه بوعوده لفيدل بالنسبة لدعم الحزب الشيوعي البوليفي لكوبا في جميع الأحوال. كان تشي قائد الميدان وكان عليه ان يقود حسب نظريته الخاصة، كان يفضل الموت على ان يتنكر لذاته.

ومع ذلك فعلى الرغم من وجود هذه المصاعب والأخطاء فقد كان بوسع الثورة البوليفية أن تطيح بحكومة باريتتوس وهي لا تزال تواصل القتال. ان النظرية الأصيلة للثورة الكوبية التي تقول بأن الثورة تصنع ذاتها، وأن الظروف لن تصبح مكتملة إلى حد يبدأ فيه الرجال العاقلون ثورتهم، تلقت تأكيداً ثانياً قوياً. فبعد الهجوم الرائع للثوار على سومايباتا في تموز ١٩٦٧ والذي أسفر عن استيلاء عدد قليل من الثوار على البلدة وحاميتها العسكرية. اهتزت حكومة باريتتوس، ولاحقتها سخرية الشعب. وحملت أسطورة الثوار الذين يقودهم تشي إلى إغلاق حدود البيرو والأرجنتين وإعلان التعبئة في جيشها. كانت بوليفيا في طريقها لأن تصبح نواة لثورة تشمل القارة وذلك. بالتحديد. بعد تعرض الانتفاضة العفوية التي وقعت في المناجم البوليفية في حزيران ١٩٦٧ إلى القمع الوحشي على يد الجيش. ولو كان تشي أكثر عدوانية وعنفاً في تلك اللحظة، فهاجم برجاله الواحد والعشرين حقول الزيت والمواصلات السائبة في بوليفيا، لجلبت أسطورة الثوار الذين لا يقهرون متطوعين

جدداً ، ولربما سببت ايضاً في سقوط باريتوس الذي كان يتربص به أعداؤه الفرص مفيدين من النقمة الشعبية. ولكن تشي تلكأ كثيراً ، وبدأت استراتيجية الجيش البوليفي في التحسن نوعياً ، وبدأت حفنة الثوار خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة من حملته ، في حالة هروب وخسارة مستمرة .

ولم تكن حتى كارثة يورو رافين حيث جرح تشي واسر وشتتت مجموعته بأسوأ من كارثة اليغريادي بيو. لقد نجا عشرة رجال من الكارثة . وعلى الرغم من ذلك تمكن الجيش البوليفي فيما بعد من الإمساك بخمسة منهم . وقد وصل ثلاثة كوبيين من بين الآخرين سالمين وعاد اينتي بيريدو . وهو قائد ثوار بوليفي . الى بوليفيا ليواصل نضاله الذي لا يزال دائراً . وأرسل اينتي بيريدو في عام ٦٨ برسالة موجهة من بوليفيا جاء فيها :

«لم تمت حرب الثوار في بوليفيا ! بل لقد ابتدأت الآن . كان موت صديقنا الذي لا يعوض ورفيقنا الميجور ارنستو تشي غيفارا وغيره من الثوار ضربة قاسية لنا ... ولكن هذه الأحداث المؤلمة أبعد من أن تخيفنا بل انها ستزيد من وعينا الثوري .

ان هدفنا الوحيد والنهائي هو تحرير أميركا اللاتينية التي هي أكبر من قارة . إنها بالأحرى وطننا الممزق مؤقتاً إلى عشرين جمهورية .

نحن مقتنعون بأن حلم بوليفار وتشي -- توحيد امريكا اللاتينية سياسياً وجغرافياً -- سوف يتحقق من خلال الكفاح المسلح. وهو الأسلوب الوحيد المشرف المنزه المجيد الذي لا نحيد عنه. والذي سيحرك الشعب ويحفزه».

ان الاهتمام الذي أبداه الجيش البوليفي في تدبير اغتيال تشي الجريح، وإحراق جثته، وذر رماده، أظهر الرعب الذي ألقته في روع الحكومات العسكرية في امريكا اللاتينية أسطورة تشي وحلمه في توحيد القارة من خلال الصراع المسلح. كانوا يعلمون أن قضيته لن تموت بموت جسده، كان بوسعهم أن يحرقوا جثته ويحولوها الى رماد. ولكنهم لا يستطيعون حرق مثله وتحويلها كذلك إلى رماد. لقد رفض بومبو حارس تشي الذي فر من بوليفيا عائداً الى كوبا، أن يعترف بفشل المحاولة البوليفية. «لم نفشل. لقد خسرنا معركة» وواصل حديثه قائلاً: «إن مجموعة الثوار، مثل سائر الرجال. يصعب الدفاع عنها عند مولدها، إنها تكون طفلاً. ولكن لو قدر لوليدنا أن ينجو لنما وتطور. ولكن فشلنا الوحيد في بوليفيا انهم اكتشفونا في وقت مبكر جداً وعلينا ان نقاتل». ان هدف الثورة المسلحة التي تشمل القارة، والتي تنطلق من نواة قرب مركز القارة لم يمت بين أتباع تشي. لقد تأجل تحقيقه الى ان تحين الانتفاضة القادمة.

لقد كان تأثير تشي في موته أكثر منه في حياته. حقاً لا يروي الموتى

حكايات ولكن يصنعون أسطورة. لم يكن تشي واحداً من أعظم أبطال عصره فحسب، بل كان أكثرهم ذكاء واصالة وتقشفاً وراديكالية وإنسانية وبهاء. لقد أثار آلاف الاضطرابات وألهم مئات الثورات. وترك للماركسيين قديساً كرس حياته وموته لأفقر الرجال دون ان يطلب العون من الله. إن قاعات الطلاب في جميع انحاء العالم تزينها عبارة «تشي حي». وكان استشهاده إلهاما للشباب وقد يكون تشي مات من أجل الفقير، ولكنه مات من أجل المستقبل أيضا.

لقد صادف بعد موت تشي مباشرة ان اشتعلت حركة الحرس الأحمر في الصين الماوية. وفي عام ١٩٦٨ ثار العديد من طلاب العالم مختارين تشي رمزاً خاصاً ومن الحرس الأحمر مثالا عاماً. وكانت أحداث عام ١٩٦٨ مشابهة بشكل غريب لأحداث عام ١٨٤٨ عندما اجتاحت موجة من الانتفاضات معظم مدن أوروبا الرأسمالية، وانتهت بانتصار القوى الحاكمة أصلاً. ان الفارق الرئيسي بين ثورات الطلاب في عام ١٩٦٨، وثورات الطبقة الوسطى في عام ١٨٤٨. يكمن في الحافز الجديد. فالقاسم المشترك بين تشي والحرس الأحمر الصيني كان مفهومهما للثورة وانه لا بد لها من أن تنطلق من الأرياف لتطهير المدن من الفساد.

ان طلاب الطبقة الوسطى الذين قاتلوا في شوارع باريس خلال ثورة مايو، أو في شيكاغو خلال المؤتمر الديمقراطي. او في برلين أو لندن أو بيونس أيرس او طوكيو أو مكسيكو سيتي أو في عشرين بلداً آخر في السنة التي تلت موت تشي، جاؤوا من بيئات مدنية أو شبه مدنية. لم يكن

الطلاب يطلبون معرفة أفكارهم الخاطئة عن فكر تشي وماو. ومع ذلك ذكرهم ماو بذلك عندما أعاد ٢٠ مليوناً من الحرس الأحمر للعمل في الريف، كما اخبرت صحيفة (The New China Daily) والدي أحد الشباب الصينيين بأن «اعظم حب يمكن لأحد أن يمنحه لأبنائه وبناته هـ أن يشجعهم على الذهاب الى الصفوف الأولى في الانتاج وان يكيفو أنفسهم في الريف من خلال اعادة تثقيف أنفسهم على يد الفلاحين الفقراء».

لقد انتصرت حكومات العالم في ١٩٦٨، فقمعت كل انتفاضات الثوار تقريباً، في أميركا اللاتينية، وقضت سلطة الكبار على احتجاج الشباب في البلدان الشيوعية والرأسمالية وفي البلدان النامية والمتخلفة واتخذت اجراءات قاسية بحق الطلاب في كينيا وتشيكوسلوفاكي والمكسيك وفرنسا والصين والولايات المتحدة، لقد كانت ردة فعل شاملة ضد ثورة شاملة الهمها من بعضها موت تشي. وكما فشل بوليفار مرات قبل نجاحه في أمريكا اللاتينية، كما فشل تشي نفسه ثلاث مرات في جواتيمالا الكونغو وبوليفيا قبل نجاحه مرة في كوبا، كذلك فإن فشل ثورات عا ١٩٦٨ لا تعني نهاية الثورات.

ان الإعجاب بتشي إلى حد بلغ منزلة العبادة يعود لأسباب شخصية وثقافية معا. فقد تحدر تشي نفسه من أصل بورجوازي أبيض، غني، متعلم، له جذور مدنية، شأن العديد من قادة الطلاب الثوريين المعاصرين، أبناء الطبقة الوسطى، ممن خاب أملهم

بالأحزاب الشيوعية التقليدية وبنقابات العمال وبقدرتها على قيادة أي نوع من الثورات مهما كان. إن هؤلاء المتطرفين الجدد ينسجمون مع تشي ومثله ، فالذي فعله وحاول ان يفعله يجعل من المستحيل أمراً ممكناً. لم يكن تشي وليد حاجة تاريخية. وإنما كان ثورياً اختار أن يكون كذلك، ولذا فانه يمد بالأمل أولئك الناس أمثال ريجي دوبريه الذين يرغبون في العمل من أجل الفقير والضائع في العالم دون أن يكونوا قد ولدوا زنوجاً او مضطهدين أو محرومين من الامتيازات . لم يكن تشي صنيع نشأته بل كان صنع ذاته.

وعلى الرغم من أن الثوري يبقى بطل عصرنا . إلا انه ليس بين الأبطال الثوريين من سيخلف تشي في مكانته. إن تنامي الإعجاب به بعد موته كان النتيجة المنطقية لنهاية حياته. تلك الحياة التي اكتنفتها الأسرار والألغاز والكفاح والصراع . ان الجبن الذي اتصف به اغتيال تشي قد خلده واضفى عليه هالة من القدسية والبطولية تبهر الانظار. لقد اختار تشي ان يغادر كوبا ويستشهد في سبيل مبدئه وعقيدته مما رفعه فوق اي من فيدل كاسترو وهو شي منه وماوتسي تونغ وجعله رمزا للثورة رغم أن مواهبه كقائد قد تكون أقل من مواهبهم. لو بقي تشي في كوبا أو لو أنه مات مصادفة كما حدث مع كاميلو سينفيجوس لما كان الطلاب ليرفعوا صوره في جميع أنحاء العالم ، وما كان ليضرب به المثل في كل مكان . وما كانت مؤلفاته لتنتشر وتقرأ في جميع الأقطار. ان التقدمين من معارضي العنف الذين لا يتعدى اعجابهم بتشي حدوداً معينة والذين يخالفونه في

بعض أساليبه سيضمون أصواتهم الى اصوات جميع الماركسيين الذين يقدرون تشي ويقدسونه ويرددون مع فيدل كاسترو قوله : «إذا كانت لدينا رغبة ان نتساءل عما نريد ان يكون عليه المستقبل فالجواب ليكونوا مثل تشي وكفى».

ان عبادة الأشخاص أياً كانت لا تخلو من عنصري النفاق والبله. وبين عبادة تشي وعبادة المسيح عنصر مشترك. لقد قاتل تشي من أجل الفقير واختار أن يضحي بشبابه ليشعرنا دون ضوضاء أنه مات من «أجلنا» ومن أجل الانسانية جمعاء. لاشك إن تشي قتل العديد من الرجال، وكره أعداءه، ولاشك أن معتقداته نابعة من مذاهب سياسية يشمئز لها الكثيرون وأنه استخدم وسائل تخلو من الانسانية في بعض الأحيان، وانه كان رجلاً يعيش في الغابة عيشة الحيوان، برغم هذا كله فقد سما فوق كل هذه النواقص حتى غدا أكبر من الكائن البشري واقترب بصورته من صورة المسيح المنقذ. عندما تراجع اعماله وفيها ما يدينه يبقى الاعتقاد بأن تشي عمل ما عمل مدفوعاً بحبه للانسانية وبما هو نافع للبشرية. ان المثل التي عبر عنها في كتاباته بأكلمها وأحاسيسه وموته، تجاوزت العقيدة والايديولوجية. ان صورة جثمانه معلقة الآن، كما تعلق الأيقونة، في البيوت الريفية من أمريكا اللاتينية الكاثوليكية.

كان سارتر محقاً عندما قال عن تشي إنه «أكثر الرجال كمالاً في عصره». كانت فيه صفة «الانبعاث» فقد أنجز في تسع وثلاثين عاماً اكثر مما انجزته مجموعة من الرجال طوال حياتهم، حتى يخيل للمرء بان له من الأرواح

ما يزيد على أرواح عدد من القطط مجتمعة . وحاول ان يكون محترفاً في كل شيء فعله ، كطبيب وككاتب يوميات ، كمنظّر سياسي وعسكري ، كمقاتل في حرب العصابات ، كاقتصادي ، كرجل تكتيك ، كمصرفي ، كمخطط ورجل دعاية ، كمنفذ لجميع ما أوكل إليه من أعمال . حتى ليصعب القول إنه كان يعاني من تناقضات او نزاعات داخلية . كان ثابتاً إلى حد الإدهاش في كل ما قاله وفكر به وعمله . إن الإداري المحترف الذي درس اقتصادامريكا اللاتينية وطوره لا يختلف عن البطل الثائر في بوليفيا الذي قرر أن القتال هو الطريق الوحيد لحل مشاكل القارة الاجتماعية والاقتصادية . الفرق بين تشي وغيره من الرجال، هوأن تشي لم يسمح لغيره بتطبيق أفكاره بل راح هو يمارسها بنفسه ويطبقها .

لم تكن هناك ازدواجية بين أعمال تشي وأقواله . لقد مارس تشي ما نادى به لا كما يفعل غيره من المفكرين الذين يقولون ما لا يفعلون ان رجل الفعل يدون تجاربه ويحللها كي يخلص بالنتائج العملية والخلقية منها ، أما الشخص الحالم فانه يطبق مهاراته في محاولة لجعل أحلامه شيئا مجسداً . كان تشي يؤيد الحكم المطلق ، وأراد أن يصل بكل شيء إلى نهايته العادلة ، وكان ضبطه للأمور مثيراً الى درجة تبدو معه وكأنها أنجزت من غير جهد . كما لم يعرف النفاق إلى نفسه سبيلا وعندما قال بأن عمل المرء من أجل أصدقائه متعة لا تضاهيها متعة ، كان ذلك صحيحاً بالنسبة اليه . ومن مقولاته أن الثوري الحق هو الذي يحارب ويموت في ظل علم أمة لم تولد بعد ، وهو ما فعله تشي نفسه دون التباهي بشجاعته واقدامه بل

فعل ذلك مبتهجاً كما لو أنه ينجز أمراً طبيعياً عادياً لقد قال ليس هناك انسان مهما علا شأنه إلا ويمكن الاستغناء عنه وهذا ما شعر بأنه ينطبق عليه ، أكثر من أي إنسان آخر. ولذا عرض نفسه للخطر. ومات رجلاً كاملاً مكتملاً.

قد يذكر التاريخ غيفارا على أنه غريبالدي * زمانه وأكثر الثوريين إثارة للمحبة والإعجاب في عصره. أما أفكاره فقد لا تكون ذات أثر في الاشتراكية وحرب العصابات إلى حين. بيد أن أثرها، لا سيما في أميركا اللاتينية ، يجب ان يستمر طويلاً. ذلك لأنه لم يأت رجل مثله منذ أيام بوليفار يحمل مُثُلاً عظيمة في الوحدة لهذه القارة المجزأة واليائسة لا شك أن الأجيال الطالعة ستلاقي أبطالاً جدداً ولكن لن يكون بينهم من هو في مثل تأثيره وإلهامه. وها هي اثار أفكاره ونتائج أعماله بدأت تظهر بعد موته في التحولات والتغيرات الاجتماعية من حولنا. عندما ينظر الجنرال في بلدة «فيفا سباتا» إلى جثة قائد الثوار المشوهة يقول: «يستطيع الميت بعض الأحيان أن يكون عدواً مخيفاً». وان تشي الميت عدو مخيف للأمم الغنية على الأرض. وللحكومات الفاسدة التي تحكم العديد من الأمم الفقيرة. وإنه لعدو رائع كبير.

(*) القائد الايطالي الشهير الذي حرر بلاده.

فهرست الاعلام

فهرست المدن

(*) للاطلاع على مذكرات تشي بصورة تفصيلية ، راجع كتاب « مذكرات ارنستو تشي غيفارا ـ أو أوراق ثورية » ، ترجمة ن . بعلبكي ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٨ م .

الفهرست

غيفارا

كان سارتر محقاً عندما قال عن تشي إنه « أكثر الرجال كمالاً في عصره » . كانت فيه صفة « الانبعاث » فقد أنجز في حياته القصيرة التي لم تتعدَّ تسعة وثلاثين عاماً أكثر مما انجزته مجموعة من الرجال طوال حياتهم ، حتى ليخيل للمرء بأن له من الأرواح ما يزيد على أرواح مجموعة من القطط . لقد حاول أن يكون محترفاً في كل شيء فعله ، طبيباً وكاتب يوميات ومنظراً سياسياً وعسكرياً ومقاتلاً في حرب العصابات ، واقتصادياً ، ورجل تكتيك ، ومصرفياً ، ومخططاً ورجل دعاية ، ومنفذاً لجميع ما أوكل اليه من أعمال ، حتى ليصعب القول إنه كان يعاني من تناقضات أو تجاذبات داخلية . كان ثابتاً الى حد الادهاش في كل ما قاله وفكر به وعمله . إنه الإداري المحترف الذي درس اقتصاد أمريكا اللاتينية وطوّره وهو في هذا لا يختلف عن شخصيته كبطل ثائر في بوليفيا ، البطل الذي قرر أن القتال هو الطريق الوحيد لحل مشاكل القارة الاجتماعية والاقتصادية . الفرق بين تشي غيفارا وغيره من الرجال ، هو أن تشي لم يترك غيره يطبق أفكاره بل راح هو نفسه ينفذها ويطبقها .

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون . ساقية الجنزير . ت ٨٠٧٩٠٠/١
برقياً موكيالي بيروت . ص . ب ١١/٥٤٦٠ بيروت